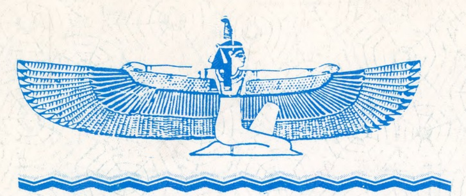




حاضر الثقافة في مصر

بيومي قنديل

حاضر الثقافة فى مصر

لقد هزمناهم وانسيناهم عبادة آلهتهم

شاعر اغريقى قديم

(١) مالت شمس العصور القديمة فى العالم القديم الى الغروب بعيد انتصاف الالف الاول لميلاد المسيح على مشهد صامت مروع ، ينهزم فيه الزارع امام الراعى ، وبعبارة افصح، ينهزم فيه الفلاح قدام الغنام ، غير أن هذه لم تكن المرة الاولى التى ينعقد فيها مثل هذا المشهد فى ساحة الشرق الادنى القديم بل ولم ينتهى (ينته لمن يشاء) مثل هذا المشهد فى المرات السابقة الى هزيمة مماثلة او مشابهة او حتى هزيمة من أى نوع لهذا الزارع امام ذلك الراعى .

نهضت فى الشرق الادنى القديم ـ وهذا مصطلح اعترف بانطوائه على مركزية اوروبا الحديثة ـ حضارتان رئيسيتان هما البابلية فى العراق ـ وأغض الطرف عن وراثة البابليين الساميين للسومريين الآريين ، والمصرية فى وادى النيل بدءا من عدة آلاف قبل الميلاد ، ودعنا نقول بقليل من التجاوز حضارة العراق وحضارة مصر ، وبعبارة اخرى انتقل السكان المحليون فى هاتين البقعتين اللتين ترويهما مياه نهرين عظيمين عبر المرحلة العليا من حقبة البربرية الى حقبة الحضارة وفقا للتقسيم الذى ادخله على تطور المجتمع الانسانى العالم الامريكى العظيم لويس هنرى مورجان فى كتابه القيّم" The ancient society " المجتمع القديم" ١٨٧٧ ، ولا يزال هذا التقسيم ساريا دون تحدى " تحد لمن اراد ذى بال حتى الآن ، ولم يكن ذلك التطور الفائق الذى حققه هذا المجتمعان الا تتويجا لحقب طويلة من الجهود المبذولة لفهم واستئناس الطبيعة ارضا وريحا ووحشا وطيرا ؛ حقب طويلة تمتد لعدة الاف اخرى من السنين . ويكفى ان نرجع هنا الى حضارات " جيرمو"و"حسونة" و" تل الصوان "و " تل المغارة "و" اريدو " .. الخ بالنسبة لحضارة العراق وحضارات " مرمدة " والفيوم " و"دبرتاسا "و" نقادة والمعادى ...... الخ. بالنسبة لحضارة مصر. لكن هذا التطور الذى حققه هذان المجتمعان العريقان ترك عدة شعوب وعددا من القبائل المجاورة فى طور ادنى حضاريا ، كالجوتيين والكاسيين والجوريين والعلاميين بالنسبة للبابليين والليبيين والاشبوبيين ، بل والاغريق بالنسبة للمصريين ، لكن الميتانيين والحيثيين والعبرانيين والعرب كانوا بمثابة القاسم المشترك الاعظم بين هؤلاء وأولئك ، وبعبارة اخرى كانت معظم هذه الشعوب والقبائل المجاورة لا تزال فى طور الترحال تتحرك وراء قطعانها ، التى تتكون بصفة اساسية من الماعز والاغنام . وظل الاعتماد لديهم قائما على الرعى كوسيلة لكسب العيش ، وهى وسيلة لا تدر سوى عائد هزيل غير منتظم ، الامر الذى الزم هؤلاء الرعاة بصفة شبه مستمرة مستوى مادون الضرورة يستسقون عنده

السماء . بينما كان هذان المجتمعان العريقان قد خطوا خطوات واسعة نحو الحضارة وعلى مدارجها ، فأخذوا فى ترويض الموارد الطبيعية من نباتية وحيوانية ويخترعون الصور الأولى للكتابة ويضعون أسس العلوم والفنون ويتحولون الى الاعتماد فى كسب عيشهم على الزراعة بشكل رئيسى ، الأمر الذى وفر لهم امكانيات هائلة للارتفاع عن مستوى الضرورة الى مستوى الحرية يضبطون عنده مياه الأنهار .

وكان طبيعيا أن ينشأ صراع طويل المدى عميق التعاريج بين الزراع والرعاة مثلما حدث فى أوقات لاحقة بين اليونان والرومان وبين الرومان والجرمان وبين الهنود والمغول وبتحديد اكثر بين المتحضريين والأدنى حضارة ، سواء اتحد هؤلاء وأولئك عرقيا أو اختلفوا . ولقد أخذ هذا الصراع أحيانا شكل الغزو وأحيانا شكل التسلل وأحيانا ثالثة شكل الهجرة ، لكنه ارتدى أحيانا أخرى شكل المطاردة . الا أن هذا الصراع اكتسب بصفة عامة طابع الدفاع من جانب الزراع الذين قنعوا بما تحت أيديهم والهجوم شبه الدائم من جانب الرعاة الذين طمعوا فيما يعوزهم بل وحلموا به أحلاما خلابة ، انعكست فى أساطيرهم ومعتقداتهم قبل أن يصلوا اليه . دفاع شبه دائم وهجوم شبه دائم جعل المصريين يبدون " ودعاء" والساميين يبدون "غلاظا / همج " . وعلى أقل تقدير هكذا وصفهما العالم الكبير سيجموند فرويد الموسوى الديانة فى كتابه الشهير " موسى والتوحيد " ص ١٠٩ (بينما انتظر المصريون " الودعاء "حتى رفع القدر الشخص المقدس لفرعونهم أخذ الساميون " الغلاظ/ الهمج " قدرهم فى أيديهم وتخلصوا من طاغيتهم) . ويجدر بنا فى هذا المجال أن نتدبر هذه الفقرة الغنية بالدلالة التى تنقلها للمؤرخ الاغريقى الشهير " ستراب‍ون " ٦٣ ق .م عن

La Geographie de l'Egypte. Amelineau

(كان الملوك المصريون الأوائل قانعين بما تنتجه أرض مصر ولم يستشعروا أى حاجة لهم الى السلع الأجنبية ، ولذلك حظروا دخول الأجانب ، وخصوصا الاغريق الى بلادهم . وفى سبيل ذلك اقاموا حامية فى بلدة " راكوتى " التى اصبحت فيما بعد أحد أحياء الاسكندرية . أما فيما يختص بالمناطق المتاخمة فلقد تركوها للرعاة الذين كانوا قادرين على

رد جميع الذين يفكرون في التسلل الى داخل مصر ٠) ٠

وفي خضم ذلك الصراع الطويل الذي دار في الشرق الأدنى القديم. ذلك الصراع الذي اختلط فيه التاريخ بالأسطورة والحقيقة بالخيال والرغبات المكبوتة بالأحلام السعيدة ، ظهرت شخصية " ابرام " أو " ابراهيم" في وقت لاحق (فسقط " ابرام " على وجهه وخاطبه الله قائلا : هاأنذا أجعل عهدي معك وتكون أبا جمهور أمم ، ولايكون اسمك " ابرام " بعد ، بل يكون اسمك " ابراهيم " لأني جعلتك ابا جمهور أمم ٠٠ الاصحاح السابع عشر ٠ سفر التكوين ٠) وابراهيم هذا ـ وفقا للتراث الثقافي السائد في المنطقة وسواء أكان واقعيا أو خياليا ، كله او بعضه ـ هو أبو الأنبياء العبرانيين والعرب معا ، وهو صاحب قطعان الغنم وهو الأب الذي امتحنه ربه بأن أمره بذبح وحيده ، اسحاق فيما يقول المسيحيون واسماعيل فيما يعتقد المحمديون ٠ ولكنه قبل ذلك وبعده هو المنظر والزعيم السياسي الخطير الذي أدرك عن وعي وبصر عميقين أن هذين المجتمعين في العراق ومصر لن ينكسرا من الخارج تحت ضغط التسلل أو الهجرة أو الغزو ، وأن انكسارهما اي هزيمتهما لن تتأتى الا من الداخل ، أي عن طريق السيطرة على روح أبنائهم وبتحديد أكثر على عقولهم ووجدانهم وفي جملة واحدة ، بتحويلهم عن عبادة آلهتهم القومية ٠ وبدأ " ابراهيم " بداية باهرة اذ دمغهما معا بابليين ومصريين بعبادة الأوثان ، وبالتالي أنزل على الديانتين وسم الوثنية ، وهو حكم قيمي أو Jugement de Valeur استقر كذلك لايزال يتردد حتى اليوم في كتابات المتعلمين من الأجانب والمصريين على حد سواء ، ثم ثنى أعني " ابراهيم " بدعوتهما الى عبادة الاهه (الهه لمن يشاء) : وهو ايل أو " ال " (فشخص " ابرام " من مصر وامرأته وكل ماله ولوط معه الى الجنوب وكان " ابرام " غنيا جدا بالماشية والفضة والذهب فمضى في مراحله من الجنوب الى بيت"ايل" الا صحاح الثالث عشر ٠ سفر التكوين ٠ العهد العتيق ٠ المطبعة الكاثوليكية ٠ ببروت) ٠ ولم يكن " ايل " الذي دعا اليه "ابراهيم" سوى رب الأرباب عند الكنعانيين والآراميين وتبناه عنهم العبرانيون ٠

وكان ، أي " ايل " في وقت أسبق زمنا الاها عاديا ضمن الآلهة العديدة التي عبدها الساميون الجنوبيون (وجاء في النقوش العربية من مدينة حرام " ذكر " ايل " أو " ال " كالاه (اله لمن يود) الى جانب آلهة آخرين . الديانة العربية القديمة . الفصل الخامس . التاريخ العربي القديم ص ٢١١ . ديتلف نيلسن ترجمة د. فؤاد حسنين على

واذا ما عرفنا ان (الدين العربي القديم هو الحجر التاريخي للديانات السامية الشمالية . المرجع السابق ، ص ٢٣٤) ، ومعناه ان الساميين الجنوبيين هم الذين وضعوا الأساس الذي ظل الساميون الشماليون وخصوصا العبرانيون يحافظون عليه باعتباره دين الآباء والأجداد ابان حياة البداوة المطلقة " الحرة " التي احتفظوا فيها بخصائص العروبة القديمة ، وبتعبير شبيه آخر خصائص العرق السامي القديم ، وذلك لأن بلاد العرب هي وطن الساميين ومهدهم ، اذا ما عرفنا ذلك ثم نظرنا فوجدنا ديانة بني أسرائيل تكتسب ملامح جديدة ، والاسرائيليين يعتنقون ديانة جديدة ، وان اختلف مؤرخون ثقاة طويلا حول مكان ذلك وزمانه ، فعند هذه النقطة يكون الوقت قد حان كي نحول وجوهنا عن الناحية الشرقية ونديرها نحو مصر .

لعل أول علاقة نستطيع رصدها لابراهيم بمصر هو مارواه الاصحاح الثاني في سفر التكوين بالعهد القديم من الكتاب المقدس: (ثم ارتحل " ابرام " متواليا نحو الجنوب وكان جوع في الأرض ، فلما قارب أن يدخل مصر قال لـ " ساراي " أمرأته أنا أعلم أنك جميلة المنظر فيكون اذا رآك المصريون ، أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك فقولي انك أختي حتى يحسن الي بسببك وتحيا نفسي من أجلك . ولما دخل " ابرام " مصر رأى المصريون أن المرأة حسنة جدا ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون فأخذت المرأة الى بيته ، فأحسن الى "ابرام" بسببها فصار له غنم وبقر وحمير وعبيد واماء وأتن وجمال . فضرب الرب فرعون وأهله ضربا عظيمة بسبب " ساراي " امرأة " ابرام " فاستدعى فرعون " ابرام " وقال له : ماذا صنعت بي لم لم تقل أنها أمرأتك لم قلت

أختى حتى أخذتها لتكون لى امرأة . والآن ها امرأتك خذها وامضى وأمر فرعون قوما يشيعونه هو وامرأته وكل ماله) .

يطرح هذا النص التوراتى المقدس عشرات الأسئلة على كل انسان يملك عقلا مستقلا أى يملك عقلا . ولكن السؤال الرئيسى فى ظننا هو: لماذا عاقب هذا الرب فرعون الذى أتخذ امرأة جميلة هى اخت ضيف حال عليه فى أرضه زوجة له ، برضاها وبرضاه . وبعبارة اخرى لماذا انتقم هذا الرب من فرعون بل ومن أهله معه لجريرة لم تقدمها يداه أو أيديهم، أى لماذا ضرب هذا الرب فرعون وأهله بضربات عظيمة لكذبة سافرة ادخلها عليه الضيفان " الجليلان " ابرام وزوجته ؟ وذلك وفقا للنصوص التى يقدسها العبرانيون ، كانوا ولايزالون .

هذه أسئلة فى غاية البساطة وعلى قدر ما من العمق فى نفس الوقت ، لكنه تعذر ، ان لم يكن قد استحال ، أن تطرأ على ذهن المتعلمين المصريين ، سواء كانوا من أتباع المسيح أو أتباع محمد عليهما السلام . والآن أنكون قد قفزنا قفزة واسعة اذا ما قررنا، دون مواربة، أن السبب فى سلوك هذا الرب على هذا النحو يكمن فى أنه لم يكن سوى رب " ابرام " و " ساراى " أو ابراهيم وسارة فى وقت لاحق وأهلهما ، أى انه لم يكن ربا للمصريين أيضا ، دع عنك البشر أجمعين ،بل كان ربا قوميا ، وبعبارة أكثر تحديدا : ربا صنعه بمعنى خلقه العبرانيون كى يسوغ ويبرر ويؤول أفعالهم . وقد توجد شعوب بلا أرباب او آلهة ولكن لاتوجد قط أرباب أو آلهة دون شعوب.وليس يعنينا فى قليل أو كثير مدى الصدق التاريخى لتلك القصة المقدسة وما اذا كانت محرفة أو مزورة قصد الانقاص من قدر ابراهيم عليه السلام . فليس فى نيتنا أن نكون يوما ما عبرانيين أكثر من العبرانيين . ويستوى لدينا هذا القول المقدس الذى ورد فى الاصحاح الخامس عشر بسفر التكوين (فى ذلك اليوم بت الرب مع " ابرام " عهدا قائلا لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير الفرات) وهذا القول غير المقدس أى الخلو من القداسة الدينية (لقد أعطى العبرانيون أو نسل ابراهيم عليه السلام عهدا أو وعدا

لأنفسهم بتلك الأرض التى أسموها " أرض الميعاد " أو " الأرض الموعودة".

في سائر الأحوال وضع ابراهيم عليه السلام أسس ما نسميه بالديانة الابراهيمية التى انشعبت فى أوقات لاحقة الى ثلاث شعب هى الموسوية نسبة الى موسى عليه السلام والمسيحية الى المسيح عليه السلام والمحمدية الى محمد عليه الصلاة والسلام ، وهى الديانة التى وقف فى كتبها المقدسة الثلاثة العهد القديم والعهد الجديد والعهد الاخير : كل من الزعماء والآباء والحكماء والشيوخ بل والملوك العبرانيين أنفسهم أنبياء مقدسين معصومين أو شبه معصومين يتلقون الوحى من رب السماء ، ووقف فيها المصريون جميعا فراعنة وأهالي - الذين وصفهم المؤرخ والرحالة الاغريقي الشهير " هيرودوت " - بأنهم أتقى البشر أجمعين - الكتاب الثاني فقرة رقم ٣٧ - كفارا وثنيين ! . وبناء عليه ، استبعدت هذه الكتب الثلاثة جميع الأنبياء المصريين الذين دخلوا دائرة النسيان بانحسار عبادة آمون ، ملك الآلهة في المجمع الالهى المصرى وأول رب للعالمين عرفه تاريخ الأديان . فهو الاله الذى امتدت عبادته وشيدت لاسمه المعابد من الشواطئ الشرقية لنهر الفرات حتى أعماق افريقيا ، وبتعبير النصوص المصرية التى وعاها لنا التاريخ من عهد تحوت - موسى الأول عا - خبر - رع (١٥٢٨ - ١٥١٠ ق ٠م) (من قرن الأرض الى أطراف المياه المعكوسة فى الشمال) بل وانتشرت عبادته بقوته الذاتية أى خلال القدوة التى غرسها أتباعه فى شواطئ آسيا الصغرى وجنوب أوروبا وجزر البحر الأبيض المتوسط ولايزال اسم " آمون " الذى يعنى " الباطن والدائم " يصعد منغما فى ختام الصلوات والأدعية والأوراد والابصاليات والثيئوطيقيات والقداسات والقناديل التى يؤديها أتباع الديانة الابراهيمية بشعبها الثلاث فى سائر أرجاء المعمورة بعد أن تحول الاسم من " آمون " الى "آمين" بموجب قواعد الامالة الشاملة فى العائلة اللغوية المعروفة باسم الحامية - السامية مثلما تحولت " التون " الى " التين " و" اللذون " الى " الذين " ٠٠٠٠ الخ ٠ ويقول عنه بحق وصدق صاحبا تفسير الجلالين ص ٥ (لفظ آمين ليس من الفاتحة بل وليس من القرآن قطعا بل يسن الاتيان به لقارئ الفاتحة مفصولة بسكتة لتمييز ماهو قرآن عما ليس بقرآن) ٠

(٢) تقف شخصية " موسى " عليه السلام عبر التاريخ الثقافى للمنطقـــة التى نحيا بين ظهرانيها شامخة غامضة ، فهى تطرح أسئلة خطيرة لكنها تظل فاغرة الشدقين باستمرار أمام الاجتهاد تلو الاجتهاد والشطط اثر الشـــطط: هل " موسى " ذاك شخصية تاريخية يقوم على وجودها دليل مادى مـــن التاريخ المدون أم شخصية أسطورية " لايمكن ان ننسبها الى التاريخ "كمـا جاء فى كتاب الفولكور فى العهد القديم " تأليف جيمس فريزر • ترجمة د• نبيلة ابراهيم ص ٦ ، ومن ثم تشبه الأساطير التى تنسبها شعوب عديـدة لملوكها وأمرائها ومؤسسى دياناتها وامبراطورياتها ومدنها ، وباختصار لأبطالهـا القوميين مثل قورش الأكبر مؤسس الأمبراطورية الفارسية حوالى ٥٥٨ ـ٥٢٨ ق •م ، ورومولوس المؤسس الأسطورى لمدينة روما والذى تستمد منه اسمها وسرجون الأكبر أول ملك سامى يحكم "بابل " حوالى ٢٦٠٠ ق•م، وهو الذى يحكى قصته على هذا النحو :

أنا سرجون الملك القوى ملك " اكاد "•
كانت أمى سيدة متواضعة أما أبى فلا علم لى به،
ولكن عمى كان يسكن الجبال •
ومدينتى هى " آزوريبانو " التى تقع على شاطئ الفرات •
وقد حملتنى أمى المتواضعة وولدتنى سرا •
ثم وضعتنى فى سلة من الأسل وأحكمت اغلاقها بالقار •
وطرحتنى فى النهر الذى لم تغرقنى مياهه •
ثم حملنى التيار الى السقاء " اكى " فحملنى معه
و"اكى " السقاء انتشلنى من المياه
و"اكى " السقاء كفلنى كما يكفل ابنه •
و"أكى" السقاء عيننى بستانيا له •
وبينما كنت أعمل بستانيا أحبتنى الالهة " عشتروت "•
ولمدة أربع سنوات حكمت المملكة
وحكمت الشعوب ذات الرؤوس السوداء
واخضعتها

(المرجع السابق ص ٨)

وهل ثمة موسى واحد أم أن هناك أكثر من موسى ؟ كما يذهب الدكتور " حسن ظاظا " فى مقدمته لكتاب " موسى بين الأسطورة والتاريخ " لعصام الدين حنفى ناصف • وهل كان مصريا كما يذهب فرويد فى " موسى والتوحيد " أم كان عبرانيا كما تقول الكتب المقدسة الثلاثة؟ وهل عاش فى " مدين " أم فى مصر أم فيهما معا كما يقول ادوارد مييير فى كتابه-Die Israeliten und ihre nach bar steame " الاسرائيليون والشعوب المجاورة " ؟ وهل طرحته أمه فى الماء رضوخا لأمر عام من فرعون مصر أو هروبا منه . أم أن أمه دفعها سبب خاص فيما يذهب فريزر - وراء هذا العمل ، خاصة وأن عمران والد موسى كان متزوجا من عمته ، وكان موسى ثمرة هذا الزواج ، وأن الشرائع العبرية المتأخرة أبطلت مثل هذا الزواج باعتباره زنا؟ (الفلكلور فى العهد القديم ص ١٢) متى قبلت القبائل العبرانية التى أصبحت شعبا رعويا منغلقا الى حد بارز على تقاليد البداوة - دينها الجديد،أى تحولت الى عبادة " يهوه " اله البراكين التى لاتعرفها أرض مصر بما فى ذلك جبل حوريب بسيناء الذى تلقى موسى عليه السلام الوحى على قمته، فى الوقت الذى يرى فيه مؤرخون ثقاة أن العبرانيين اعتنقوا عبادة هذا الاله الذى نسبوه بالبنوة الى " ايل " الاله القديم ، نقلا عن المديانيين الذين جاوروهم أو جاورهم عدة قبائل منهم فى فترة ما من فترات تاريخهم، والأحرى ترحالهم ؟ هل ترجع عقدة لسانه عليه السلام (بل انا ثقيل الفم واللسان • سفر الخروج الا صحاح الرابع) و(أحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى • آية ٢٧/٢٨ سورة طه)الى عيب خلقى بتسكين اللام أم الى عجزه عن الافصاح عن نفسه باللغة المصرية القديمة بطلاقة كافية فى حضرة فرعون مصر ؟ وبالتالى هل كان هارون الذى يقال انه اخوه مصريا أم عبرانيا يتقن اللغة المصرية ؟

أسئلة منطقية وعلى جانب كبير من الأهمية فى تصورنا ،لكنها لاتزال مفتوحة حتى الوقت الحاضر فى ضوء حقيقتين متناقضتين ،الأولى لم يرد " موسى " سواء بصفته أو باسمه فى أى نص مصرى قديم، وخصوصا مجموعة وثائق تل العمارنة والثانية ، عظيم هو وخطير ماتنسبه

الكتب المقدسة الثلاثة التى تستولى على عقل وأخشى أن أضيف ووجـــدان شعوب المنطقة التى نحيا فى فجاجها وتسيطر بوجه خاص على عقل ووجدان متعلميها .

وفى سائر الأحوال يعد " موسى " عليه السلام بصفة أساسيـة زعيما ومعلما ومحررا ومشرعا للعبرانيين ، ولا عجب فى أن ديانـة العبرانيين هؤلاء أو الشعبة الاولى للديانة الابراهيمية حسب اقتراحنـا تحمل اسم الموسوية Mosaïsme نسبة اليه ، ولكنه يقف قبل ذلك وبعده كرمز قومى للعبرانيين فى وجه فرعون الذى يقف فى الكتب المقدسة الثلاثة كرمز قومى لسائر المصريين . ومثلما ضرب رب " ابراهيم" عليه السلام فرعون وأهله دون تفريق على نحو ما أشارت اليه الفقـرة السابقة يكيل رب موسى عليه السلام الضربات ويصب الكوارث على الفرعون " عليه الحرب ! "وقومه دون تمييز (ثم قال الرب لموسى قل لهـارون خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين وأنهارهم وخلجهم ومناقعهم وسائـر مجاميع مياههم فتصير دماء ، ويكون دم فى جميع أرض مصر وفى الخشـب وفى الحجارة . فصنع كذلك موسى وهارون . كما أن الرب رفع العصـا وضرب الماء الذى فى النهر على مشهد من فرعون وجميع عبيده فانقلب جميع الماء الذى فى النهر دماء ، والسمك الذى فى النهر مات وأنتن النهر فلـم يستطع المصريون أن يشربوا من ماء النهر وصار الدم فى جميع أرض مصر . الاصحاح السابع . سفر الخروج . التوراة . العهد القديم) و(فلمـا كان نصف الليل ضرب الرب كل بكر فى جميع أرض مصر ومن بكر فرعـون الجالس على عرشه الى بكر الأسير الذى فى السجن وجميع أبكار البهائـم فقام فرعون ليلا هو وجميع عبيده وسائر المصريين وكان صراخ عظيم فى مصر حيث لم يكن بيت الا وفيه ميت (الاصحاح الثانى عشر . سفر الخروج . التوراة . العهد القديم) و(شبان " أون " أى عين شمس "وفيباست" أى " تل بسطة " يسقطون بالسيف والنساء (المصريات) يذهبـن فى السبى . نبوءة حزقيال . اصحاح ٣٠ آية رقم ١٧ العهد القديم) وأعطى نفسى حرية تجاوز العهد الجديد الذى ورد فيه (وتهذب موسـى بكل حكمة المصريين . أعمال الرسل . الاصحاح السابع) الى العهـد

الاخير ، (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ودمرنسا ما كان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون • سورة الاعراف آية رقم ١٣٧)

وواضح لكل ذى نظر أننى لا أحصى ولا أعدد ما جاء فى تلـــك الكتب المقدسة ضد المصريين ممثلين فى رمزهم القومى الذى اختارته لهـم تلك الكتب وهو فرعون " عليه الحرب " • وكان طبيعيا من الفـــؤاد الرعوى الذى يقف هذا الموقف العدائى السافر دون سبب قوى او دون سبب من أى نوع قدمه الزارع المصرى ، أن يقف موقفا نقيضا من الراعـــى العبرانى ، فالعهد القديم يصف العبرانيين بأنهم شعب يهوه ،وفى وقت لاحق شعب الله المختار • ويقول عنهم العهد الاخير (ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم علـــى العالمين • سورة الجاثية آية رقم ١٦) وتسبى " سارة " عليها السلام بجمالها عين فرعون (عليه الحرب !) ويأسر " يوسف " عليه السـلام هو الاخر بوسامته زوجة فوطيفار عزيز مصر " عليهما الحرب " ويقـــرر الاصحاح الأول من سفر الخروج بالعهد القديم آية رقم ٢٠ أن (العبرانيات لسن كالنساء المصريات فهن قويات يلدن قبل ان تدخل عليهن القابلة !) ويقبل الرب قربان الراعى ويرفض قربان الزارع " وعرف آدم حواء فحملت وولدت قاين فقالت رزقت رجلا من عند الرب ثم عادت فولدت أخـــاه هابيل فكان هابيل راعى غنم وقاين يحرث الأرض • وكان بعد أيـام أن قاين قدم من ثمر الأرض تقدمة للرب وقدم هابيل أيضا شيئا من أبكـــار غنمه ومن سمانها فنظر الرب الى هابيل وتقدمته والى قاين وتقدمته لـــم ينظر " • سفر التكوين الفصل السابع العهد القديم " واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الاخـــر قال لأقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين •آية ٢٧ سورة المائـدة• القرآن الكريم • ويشرح صاحبا تفسير الجلالين " فتقبل من احدهمـا " بقولهما وهو هابيل " ولم يتقبل من الاخر " بقولهما وهو قابيل ، ولا ينبغى أن نمضى هذه المرة دون أن نشير الى آيات التبجيل والتكريـــم التى يسبغها العهد الجديد على أسباط بنى اسرائيل واناجيل ثلاثة مـــن أربعة تخاطب السيد المسيح بأبن داوود" • بصفة تكاد أن تكون مستمرة•

ذاك هو موقف مانسميه بالديانة الابراهيمية التى يدين بها قــولا وعملا سائر المصريين ، وخصوصا متعلموهم سواء أكانوا من أتباع المسيح أو أتباع محمد عليهما السلام بطبيعة الحال ، وسيان كانو أكاديميين أو علمانيين ، متخصصين محافظين أو مثقفين ثوريين ولقد قنع هــؤلاء الأخيرون ـ ويالالعجب العجاب ـ ورضوا عن انفسهم باكتشافهــم أن لـ " فرعون " " عليه الحرب ! " بعدا طبقيا فصدقوا على ما قالــه ويقوله فيه صباح مساء الابراهيميون ونجد فى كتاباتهم واستعاراتهم وتشبيهاتهم أسطع دليل ذلك . وبهذا يكون المتعلمون المصريون قد انفردوا بكافــة اطيافهم بين سائر المتعلمين فى كافة أرجاء المسكونة باحتقار أجدادهم أى باحتقار أنفسهم ، . نزولا عند ارادة أعدائهم التاريخيين دون أن يستأهل أجدادهم على الأقل ذرة واحدة من هذا الاحتقــار العظيم الذى يحملونه فى جوانحهم دون أن يشعروا بثقله عليهم مثلمــا يحملون ذلك العامود من الهواء الذى يمتد عدة كيلومترات فوق رؤوسهــم فى الغلاف الجوى للأرض .

ولكن هل تلقى موسى عليه السلام الذى نسب اليه نساخ العهد القديم بعد نحو ٨٠٠ عام من وقوع أحداثه ، الأسفار الخمسة أو الستة الأولى منه أى التوراة ـ موسويته أو يهوديته تلك جاهزة من ربه علــى جبل حوريب السينائى أم أن لها مصادر ما سابقة عليها ؟

يعتقد الباحث الجاد " فراس السواح " فى كتابه " مغامــرة العقل الأولى " مقارنة جديرة بالنظر بين الديانتين الأتونية والموسويــة ص ١٠٤ ، ١٠٥ على هذا النحو :

١ ـ تصر الديانتان ، الاتونية والموسوية ـ وذلك لأول مرة فى التاريــخ على وحدانية الاله ، الا أن وحدانية اخناتون أعم وأشمل لانه يــــرى "آتون " الاها للأمم كلها بينما بقيت اليهوديــة فترة طويلة من تاريخهــا على الاعتقاد ب " يهوه " الاها للشعب اليهودى يتجلى فى المعـــارك والانتصارات لاكما يتجلى "آتون " فى الزهور والشجر وجميع أشكال النماء والحياة .

٢ـ تمنع الديانتان أى نوع من أنواع التصوير أو النحت للاله الواحـــد ، لذلك فلقد حطمت كل التماثيل ابان حكم أخناتون ومسحت عن جـــدران المعابد صور وأسماء الآلهة القديمة • وكانت الاشارة الواحدة المسموح بهـا كرمز للاله هى أشعة الشمس التى كانت جميع الصلوات تحث على النظـر للقوة الكامنة خلفها فآتون ليس قرص الشمس ذاته ، بل خالق أشعتـــه التى عبر عنها بالطاقة وليس مافى الكرة الملتهبة من مجد مشرق الا كرمـــز للقدرة المستورة • كذلك نقرأ فى التوراة (لاتصنع لك تمثالا صورة ممـا فى السماء من فوق وما فى الأرض من أسفل وما فى الماء تحت الأرض،سفـر التثنية الاصحاح ٥ ـ ٧ العهد القديم) •

٣ـ لانجد فى الديانتين أثرا لفكرة البعث والحساب والحياة الاخـــرة فأخناتون فى صراعه مع الديانات القائمة آنذاك أراد أن يحرم أوزيـــروس ، وهو الاله الشعبى الأول من ملكوته فى العالم الآخر لأنه كـــان رب البعث والحساب الذى يزن الحسنات والسيئات فى العالم السفلى، ومالـك قلوب العباد الباحثين عن السعادة فى الحياة الآخرة • وعمد اخناتـــون الى الغاء فكرة البعث والحساب ، وعلى منواله نسجت الديانة اليهوديـــة التى لانجد عندها أفكارا واضحة عن الحياة بعد الموت بل أن هـــذه الفكرة قد أعتبرت لفترات طويلة ضلالا مبينا ، ولم تبدأ فى السيطرة علـى عقول المتدينين الا فى الفترات المتأخرة وقبيل ظهور السيد المسيح •

٤ـ نظرا لاتصال الديانات المصرية بالســحر ، فلقد حاربت الآتونيـــة السحر والسحرة وأبطلت تأثيرهم فى المجتمع ، كذلك الأمر فى الديانـــة اليهودية التى حرمت السحر •) •

ولقد لاحظ عديد من مؤرخى العالم القديم هذه الصلة القويـــة بين الآتونية والموسوية ، على رأسهم جيمس هنرى بريستيد ، حجـــة المصريات الكبير الذى عقد مقارنة واضحة بين نشيد اخناتون للاله آتـون وبين المزمور ١٠٤ من مزامير داوود من العهد القديم ويحسن بنا فى هذا الصدد أن نثبتها نقلا عن ترجمة الدكتور أحمد فخرى فى كتابه" الحضارة المصرية "

نشيد أخناتـون :
وعندما تغرب فى الأفق الغربى
وتظلم الأرض كالمـوت
ويخرج كل أسد من عرينه
وكل مايزحف ويلدغ ٠
وعندما يطلع النهار وتشرق فى الأفق ٠
تسوق الظلام بعيـــدا
يستيقظ الناس ويقفون على أقدامهم
جميع من فى الكون يعملون عملهم
ما اكثر اعمالك
انك تخفى عن نظر الانسان
أيها الاله الأحد الذى لاشبيه له
لقد خلقت الأرض حسب مشيئتك
المزمور رقم ١٠٤ :
تجعله ظلمة فيصير ليـــلا
فيه يدب كل حيوان الوعر
الأشبال تزمجر لتخطـف
تشرق الشمس فتجتمع وفى مآويها تربض
الانسان يخرج الى عملـه
والى شغله فى المـاء
ما أعظم اعمالك يـــارب
كلها بحكمة صنعـت
ملآنة الأرض من غنـاك ٠

لقد كان الفرعون آمين ـ حوتب الرابع أو اخناتون فى وقت لاحـق أول من دعا الى الوحدانية ، تلك التى تستبعد كافة الآلهة الأخرى ٠ولقد تأكدت هذه الصفة فى عبارات عديدة ، منها ماورد فى أحد اناشيـــده (أنت أيها الاله الواحد ٠ لا اله الا أنت) بريستيد ٠ تاريخ مصـر ص ٣٧٤ ، وكان اخناتون يحارب بآتونيته هذه ، وبصفة أساسية الديانـة

الأوزيرية الشعبية الواسعة الانتشار التى بشرت وأنذرت بعالم آخر، بعد الموت ، وما يستتبع ذلك من حساب وجزاء تحت امرة أوزير أهم الآلهة فى عالم الموتى .

ويجدر بنا أن نشير فى هذا المقام الى عادة الختان التى انفرد بها المصريون بين سائر شعوب شرقى البحر الأبيض المتوسط ، وكانت تمارس فى مصر — فيما يروى لنا " هيرودوت " أبو التاريخ (ــ ٤٣٠ ق.م) من زمن طويل ، وتأيد قوله بفحص المومياوات المصرية ، وكذلك بالرسومات التى اكتشفت على جدران المدافن ويقول عنها فرويد :

(أن الساميين والبابليين والسومريين لم يكونوا يعرفون الختان) ومع ذلك يعود كتاب التوراة ونساخها بتاريخ عادة الختان الى أيام زعماء القبائل العبرانية كعلامة للعهد بين الرب وابراهيم عليه السلام . ويغضب الرب من موسى عليه السلام لأنه أهمل هذا العرف المقدس ، ويقترح أن يذبحه عقابا له على ذلك ، ولكن زوجة موسى عليه السلام ، وهى من اهل " مدين " تنقذ زوجها من غضب الرب باجراء العملية له على وجه السرعة . ولكن فرويد يرفض كل هذه الأقاويل بصفتها " تحريفات " ، ولانرانا أقل موضوعية منه .

واذا كان الأمر كذلك فاننا لانستطيع أن نجد مفرا من مواجهة هذه النتيجة :

لقد استخدم العبرانيون ثم ورثتهم من بعدهم أقصد أشقاءهم العرب وهؤلاء واولئك رعاة ساميون ، احدى الديانات المصرية أعنى — الآتونية فى قمع المصريين أيديولوجيا وفى دفعهم الى نسيان عبادة آلهتهم المتعددة وبعبارة أخرى أنتج المصريون أنفسهم ، وبصفة جزئية على الأقل ، السلاح الذى سيقمعهم به فى وقت لاحق أعداؤهم التاريخيون ، وتلك احدى نقائض تاريخ المنطقة التى نعيش فى وهادها ونجادها .

٣ـ الله هو الاسم الذى تعرفه اللغة العربية الوسيطة الشهيرة بالفصحى للاله الواحد الأحد الذى عرفته شعوب الشرق الأدنى القديم وانتقل احيانا بصفاته المحلية وأحيانا أخرى باسمه العربى ـ السامى ذاته الى شعوب عديدة فى سائر أرجاء المعمورة ، أى أن " الله " كاسم للاله الواحد الأحد أى لفظ الجلالة يوازى Kyp ı E لدى الاغريق القدماء، ويناظر deus لدى الرومان القدماء ويساوى Dios لدى الاسبان المعاصرين ، و Dieu لدى الفرنسيين و Gotte لدى الألمان و God لدى الانجليز ، ونقرأ فى الترجمة التى قامت بها جمعية الكتاب المقدس بجنيف للعهد الجديد عن النص اليونانى القديم ثلاث عبارات متساوية •

1- Die Bibel ist das inspiriente Wort Gottes.
2- La Bible est la parole inspiree de Dieu .
3- The Bible is the inspired word of God.

وليس فى استطاعتنا أو استطاعة أحد ، فى ظننا، أن يترجم هذه العبارة الى اللغة العربية الوسيطة (الفصحى) دون أن يستخدم لفظ الجلالة العربى " الله " على هذا النحو •

الكتاب المقدس هو كلمة " الله " الملهمة أو المنزلة •

وهذا نفس ما اضطر اليه مترجم مسرحية " الفرس " لاسخيلوس عن اليونانية القديمة اذ نقل اسم الرب فى اليونانية القديمة فى حالة المنادى الى " يا الله " رغم الحقيقة الساطعة التى تقول أن الاغريق القدماء لم يعرفوا قط هذا الاسم وان عرفوا (الاله الواحد الأحد) وأطلقوا عليه اسما خاصا فى لغتهم • ونقابل فى مادة " الله " ALLAH فى قاموس اكسفورد Oxford أن الله هو الاسم الاسلامى للاله Muslim name of God ، ولو أن مصنف القاموس أغفل بذلك أن الاسلام ليس لغة بل دينا. واللغات هى التى تسمى وليست الأديان ، وعلم الدلالات Semantics فرع من اللغويات وليس مبحثا من مباحث الأديان وبناء عليه فإن العرب ، الساميين ، هم الذين سموا هذا الاسم وليس المسلمون ، وأن هؤلاء تبنوا وتبنوا هذا الاسم فى أوقات لاحقة عن أولئك (واذا كان المقريزى الملقب بشيخ المؤرخين

العرب قد كتب فى خططه جـ(١)ص ١٢٧ : تعليقا على الانتصار الساحق الذى أحرزه الخليفة عبد الله المأمون رضى الله عنه على المقاومة الباسلة للمصريين ـ البشموريين فى شمال الدلتا : "واذل الله القبط اى

المصريين فى جميع ارض مصر " فان المعنى لايزيد ولاينقص شعرة واحدة عن : وأذل " العرب ـ الساميون " القبط أى المصريين ٠٠" فلقد بدأ الصراع قوميا واستمر كذلك وان ارتدى الطابع الدينى الزائف فى هذا الوقت أو ذاك وعلى الوجه الآخر ، لانستطيع ان نتخيل مهما جمح بنا الخيال ان يذل ، آمون ، او اى اله مصرى آخر المصريين ٠وعلى أى حال لم يرد فى أى نص قديم أو وسيط او حديث مثل هذا القول الذى يجافى ، فى رأينا ، كل عقل ٠ و غنى عن البيان أن اسم " الله " أو لفظ الجلالة هذا يوازى " آتون " لدى المصريين الآتونيين خلال حكم اخناتون فى الأسرة الثامنة عشرة التى انتهت عام ١٣٥٠ق٠م ، ويساوى " ايل " أو " ال " لدى الساميين بل ويسود اعتقاد بين عدد كبير من العلماء أن لفظ " الله " ماهو الا تصحيف للفظ " ايل " أو " ال " السامى القديم ٠ ويناظر " يهوه " اسم الاله لدى العبرانيين بصفة خاصة فى وقت لاحق ٠ لكننى أود أن أتمهل قليلا أمام ذلك التوازى الأخاذ بين " الله" الذى أطلقه العرب الشماليون القدماء على " الاله الواحد الأحد " من جانب و ΚΥΡΙΕ أى " كيريا " الذى أطلقه الاغريق القدماء على نفس الاله لدى الترجمة السبعينية الشهيرة التى أشار بها بطليموس الثانى فلاديلفيوس حوالى عام ٢٨٤ ق ٠م للكتاب المقدس الذى لم يكن وقت ذلك سوى العهد القديم وكان ذلك فى مدينة الاسكندرية عاصمة البطالمة من جانب آخر ٠

يروى الرحالة الانجليزى S.H. Leader الذى زار مصر لدى انحناءة القرن الماضى فى كتابه " أبناء الفراعنة المحدثون" Modern Sons of Pharaohs " أن المصريين ساروا فى موكب واحد ضخم فى شوارع القاهرة يطلبون الرحمة من السماء ، أى يستنشقونها بعد انخفاض الفيضان فى ذلك الموسم وكان قسم منهم يردد " لا اله الا الله " ، وقسم آخر يهتف:

ΚΥΡΙΕ ΕΛΕΗCΟΝ

أى " يارب ارحم " باللغة اليونانية القديمة ، وكان الموكـــب الضخم يصدر الاسترحام فى نغمة واحدة وايقاع واحد ، . . . . . مما بهر الرحالة " ليدر " . ولكن الملاحظة التى تسترعى النظر ازاء ذلك الموكب الضخم أن المصريين بشقيهم كانوا يخاطبون " الالــه الواحد الأحد" بلغتين أجنبيتين ، هما اللغة العربية الفصحى التى زحفت مع الزاحفيــن من غرب آسيا واللغة اليونانية الفصحى التى وفدت قبل ذلك من جنـــوب اوربا .

وكان الأجدر بنا أن نتوقف طويلا أمام لفظى الجلالة ، العربــى الوسيط " الله " والاغريقى القديم " كيريا " ، ونبحث فى اشتقاقهمــا اللغوى ونتتبع مراحل التطور الدلالى Semantic التى دخلت عليهما حتى صارا الى ما صارا اليه . ولكن يكفينا فى الوقت الحاضر ويفى بغرضنا فــى هذه الفقرة أن نقول أن Kypie هو اسم الرب الذى يعنى أيضا السيد وهو اسم من النوع الثانى واللفظان الجليلان يقبلان بطبيعة الحال ما تقبله سائر الأسماء فى اللغتين اليونانية والعربية من حالات اعرابيـــة تصل الى خمس فى الأولى وثلاث فى الثانية ، وان ننقل عن العالـــم الفرنســى الشهير Dussaud قوله " أخبرتنا النقوش الصفويـــة وهـى نقوش عربية شمالية – للمرة الاولى وبدليل لايقبل الشك كيـف أن " الله " كان معروفا لدى العرب وكان مقدسا خاصة فى المجمــــع الالهى العربى الشمالى قبل ان يبشر به الاسلام كاله للتوحيد " .

وأن ننصت الى الذاكرة الشعرية للعرب التى وعت لنا هذا البيـت الذى ينسب الى أوس بن حجر :

باللات والعزى ومن دان دينهم

وبالله ان الله منهن اكبر . (قاموس المنجد طبعة ١٩٨١) .

يكفينا ذلك قبل أن نقصر الحديث على حياة الاسمين فى مصــر وفى عبارة أخرى على حجم التأثير الذى تركته اللغتان اللتان سادتـــا كلغتين للثقافة والتعليم الى الحد الذى مال عنده المتعلمون المصريـون

فى الحقبتين : الاغريقية التى طواها الدهر ، والعربية التى لانزال نحياها الى القول بأن المصريين اغريق مرة وبأنهم عرب مرة اخرى . دون أن يستند أى من القولين الا الى العواطف الدينية ، المسيحية فى الأولى والمحمدية في الثانية ، ودون نظر الى الأدلة الساطعة على ان المصريين حاميون شرقيون وليسوا اغريقا ولا حتى آريين ، وليسوا عربا ولاحتى ساميين . اذ " لايلزمنا أن نبالغ فى أهمية انتشار الجنسية (العرقية) الأسيوية فى مصر فالواقع أن حضارة البلاد من أساسها افريقية ويجب الا نتخيل النازحين قبل عصر الأسر ٣٥٠٠ ق٠م الا عددا ضئيلا بالنسبة الى السكان الأصليين ، لذلك سرعان ما اختلطوا بهم واندمجوا فيهم وتطبعوا بطباعهم ، وهكذا نجد اللغة والزراعة الأصليين منذ أقدم عهودهم ولم يؤثر النازحون فى تغيير شئ كبير منهما بل كان تأثيرهم سطحيا " بريستيد " تاريخ مصر من أقدم العصور الى الفتح الفارسى " كما (أن الفتح العربى كان تغييرا فى السادة الحكام منه تغييرا فى الجنس) فلندرز بترى ٠ هجرات ص ١٥٠ زد على ذلك (أما عن العرب الذين كثيرا مايطلق اسمهم بطريقة غير سليمة على المصريين فلقد نسب اليهم تأثير اكبر بكثير مما كان لهم فى الحقيقة) شانتر P.202 Recherches بالاضافة الى ذلك " اعلم ان العرب الذين شهدوا فتح مصر قد أبادهم الدهر وجهلت أحوال أكثر أعقابهم " البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب" ٠ المقريزى ، ومعنى العبارة ، كما هو واضح ، ان العرب الذين وفدوا من غرب آسيا قد تمصروا فيمصر وذابوا فى المصريين .

غير أن الاغريق والعرب ينفردون معا ، دون سائر الذين شقوا طريقهم الى مصر بأنهما حاولا محاولتين جسورتين نحو استبدال اللغة المصرية المحلية فى مرحلتها الديموطيقية على زمن الاغريق وفى مرحلتها القبطية على زمن العرب ٠ وكان كلاهما مسلحا بكتاب مقدس ، مستعار ومتأخر نسبيا بالنسبة لأولئك وأصيل أو شبه أصيل ومواكب زمنا بالضبط لهؤلاء ٠ وكانت هاتان المحاولتان أخطر محاولتين من نوعهما فى التاريخ القديم والوسيط ، وذلك على خلاف المحاولات التى بذلها الفرس

والاشوريون والرومان والاتراك العثمانيون ، اذ باءت هذه بفشل ذريـــع لأسباب لامجال لتقصيها الآن •

لكن الاغريق والعرب كانوا فى مستوى أدنى حضاريا من المصريين لدى تسللهم ثم غزوهم أرض ايزيس ، دون أن ننفى بطبيعة الحال ما كان عليه هؤلاء واولئك من تسليح أفضل وتنظيم أدق وروح معنوية أعلى•ونستمد دليلنا على مقولة الدونية النسبية لهولاء الغزاة من حقيقتين قد تبـدوان متناقضتين ، وهما كذلك بمعيار خاص • الحقيقة الأولى أن الاغريـــق والعرب لدى وصولهم الى مصر عامى ٣٣٢ ق •م و ٦٤١م • كغزاة لـم يكونوا قد تحولوا كل على حده بطبيعة الحال ، الى شعب بالمعنى الذى نفهمه من عبارة جماعة قومية موحدة ، أى أن هؤلاء وأولئك لم يكونوا قـد غادروا بصفة نهائية ضيق الانتماءات القبلية الى رحابة الانتماء القومـــى ، والأمة التى تعد تعبيرا عن النضج القومى " ظاهرة اجتماعية يمكـــن ان تظهر فى كل مراحل التاريخ " وفق د• سمير أمين • وبعبارة أخـــرى. لم يكونوا قد ارتقوا الى مستوى اعلاء شأن محل الاقامة أى رابطـــة الأرض بشكل حاسم على رابطة الدم أى رابطة القبيلة أو البطن أو العشيـــرة او الفخذ وأقصى ما كان الاغريق قد شارفوه هو الانتماء الى المدينة، أثينا، دوريا ، اسبرطة، أتيكا ••• الخ ويذكر د• ابراهيم نصحى صاحب كتـــاب " مصر فى عصر البطالمة " ـ نقلا عن وولف Wolf ص ١٣ " اذا كانت كل وثائق الاسكندرية ترجع الى عهد الامبراطور أغسطس فانه لاشك فى أنها تصور ما كان متبعا بين اغريق الاسكندرية وبطولميس فى عصـــر البطالمة ولاسيما أنه قد ورد فى وثيقة بطلمية من مدينة بطوليس ذكـــر الزواج أمام هيئة كهنة الوحدات (يقصد البطون) وأنه من المعـروف أن هاتين المدينتين كانتا تعتزان بالنظم الاغريقية القديمة التى كانـــت تستوجب انتماء كل مواطن الى قبيلة Phyle و حى Demos وبطن Phratra وأما " نقراطيس " فانه لم توجد فيهـــا قبائل وأحياء وتبعا لذلك لم توجد فيها " بطون " ومثلما كان عليـــه الحال فى المدن الاغريقية الأخرى أو على الاقل فى اثينا يبدو ان الوحدات (يقصد البطون) فى الاسكندرية وبطولميس كانت تقوم بدور فـــــى زواج اعضائها) •

ويقول ابن عبد الحكم فى كتابه " تاريخ مصر وآثارها " : (كذلك روعى هذا التقسيم (القبلى) فى مدينة الفسطاط التى اختطها العرب اذ اتخذت كل قبيلة لنفسها خطة مستقلة عن القبائل الأخرى) ولم يكن الأمر قاصرا ـ أو مقصورا كى لايغضب الفقهاء اللغويون ـ على خطط الفسطاط بل وفى تحديد الكور التى يرتبعون فيها كلما حل الربيع(كانت هذيل تأخذ فى بنا وبوصير ، وكانت عدوان تأخذ فى بوصير .... الخ المرجع السابق ص ٩٩) ونفس الأمر لدى الاصطفاف للقتال .

هذه هى الحقيقة الأولى أما الثانية التى نستند اليها فى اقامة دليلنا على الدونية النسبية للثقافتين ، أكرر الثقافتين ، الاغريقية والعربية على حد سواء ازاء الحضارة / الثقافة المصرية التى عبرت عنها اللغة الديموطيقية أمام الاغريقية واللغة القبطية أمام العربية فهى وضع المرأة .

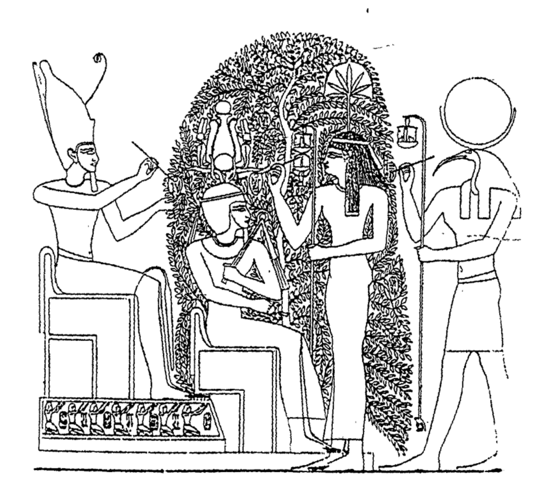
يقول صاحب كتاب " مصر فى عصر البطالمة " ص٣ : " لعل الفارق بين التشريعين المصرى والاغريقى يبدو لأول وهلة فى تنظيم الاسرة ، وذلك لأن الشواهد كثيرة على أن المرأة كانت تتمتع فى مصر بمكانة أجتماعية وقدر من الاستقلال لم تعترف بهما الشرائع للمرأة الاغريقية والرومانية فعند الغربيين (القدماء بطبيعة الحال) لم يعترف القانون الا بالطفل الذى كان قبل كل شئ ابن أو ابنة الأب الشرعى على حين ان القانون المصرى كان يعلق اعظم الأهمية فى مسائل البنوة الشرعية والوراثة على الأم التى أنجبت الطفل " ويذهب ديودور الصقلى الى حد القول بأن الزوج كان يعد فى عقود الزواج المصرية باطاعة زوجته . ويتفق كل من " هيرودوت " وسوفوكليس على أن الرجال فى مصر كانوا يقومون ببعض الأعمال فى البيت مثل النسيج فيما تخرج النساء لتكسب قوت الأسرة . ويشير ريفيللو Revillout الى أن الزوج كان ينزل لزوجته عن أملاكه ويقول أنت التى ستعنين بى فى حياتى وانا مت فأنت ستتولين أمر دفنى ومقبرتى . وفضلا عن ذلك كانت المصرية لاتتزوج الا بمحض اختيارها ولاتستمر فيه الا بمحض ارادتها . وتشير القرائن الى

أنه عندما ساوى البطالمة بين المرأة المصرية والاغريقية من حيث اعتبارهـا قاصرا أدخلوا على القانون المصرى الأحكام الاغريقية الخاصة ببيان الأوصياء على المرأة وكانوا أقرب أقاربها ــ من الرجال ــ وأحق الناس بالولاية عليها واذا لم يكن للمرأة وصى ممن ينص عليهم القانون أو وصية أبيها فانها كانت تلجأ الى المحاكم كى تعين لها وصيا ، أى أن المساواة التى أدخلهـا الاغريق ــ البطالمة بين المرأة المصرية والاغريقية هبطت فى عبارة أخرى بمنزلة المرأة المصرية الى مستوى المرأة الاغريقية • أما عن وضع المـرأة عند العرب ، فالأمر كان -ولايزال شديد السطوع• ويكفى أن نعيد الـى الاذهان أن النسق القبلى ــ العشائرى لدى هوءلاء الأقوام كان قد تخلى وقت ذاك كلية عن حق الأم وانتقل الى حق الأب بفضل والاحرى بسبب سيادة الملكية الخاصة على الملكية العامة وبشكل أشد تسارعا فى ظـل مردود عمل شحيح وغير منتظم "رزق " تدره وسيلة الرعى، الأمر الـذى جعل الغزو والاغارة وسيلة كسب عيش وأخشى أن اقول وسيلة كسب العيش بينهم ••• ويقفز الى الذهن ذلك الحديث النبوى الشريف " نحن قوم لانزرع ولا نصنع وانما نعيش على الغنائم التى نغنمها من الكفار" وليس يعنينى فى قليل أو فى كثير ما اذا كان هذا الحديث موضوعا او صحيحا ضعيف العنعنة أو قويها ، متفق أو مختلف عليه فهو فى نهاية المطـاف وفى سائر الأحوال تعبير عن عقل العرب الذين يلزم لاستمرارهم على قيد الحياة ، والحالة هذه ، وجود " كفار" بأعداد معقولة فى متناول أيديهم والأولى فى متناول سيوفهم • لكن هذا الوضع الاقتصادى ــ الاجتماعـى ، فى خطوطه العريضة هو الذى جعل الشريعة المحمدية الغراء تقضى بأن يكون " للذكر مثل حظ الأنثيين " لدى التوريث • ويبدو أن عقابـا حتميا قد نبع من تلك الأرض التى وقف عليها كل من الاغريق والعـرب لنبذهما المرأة على ذلك النحو ، عن مجتمعيهما ، وانزالها هذه المنزلة الدنيا • يتمثل ذلك العقاب فى نشوء اللواط وازدهاره الى ظاهـرة اجتماعية بارزة ، انتشرت بين العرب حتى نعم بـ" ثمارها " خلفاء مثل الوليد بن يزيد الذى قال عنه الامام الذهبى " لم يصح عن الوليد كفر ولا زندقة بل اشتهر بالخمر واللواط " وعمت بين الاغريق حتى جنـى " قطوفها " زيوس رب الأرباب نفسه لدى الاغريق ويجدر بمن يشـاء أن يرجع الى أسطورة " جانيميد" فى هذا الصدد • ولعلنا نعـرف

جميعا أن المجتمع المصرى القديم الذى لم ينبذ المرأة ولم ينزلها مثـــل تلك المنزلة جهل أو كاد يجهل هذه " المتعة " طوال تاريخه الـــذى امتد عدة الاف من السنين ٠

حقيقتان متناقضتان أو تبدوان كذلك كما سبق لنا وأسلفنا فى ضوء معيار التطور الرأسى الاتجاه ـ الذى نتحفظ ازاءه ـ اذ ارتقى المصريون خلال الحقيقة الأولى الى مرحلة أعلى لكنهم أبوا أن يسيروا بحـــق الأب الذى كان يواصل صعوده فى خط موازى " أو مواز لمن يحب " علـــى وجه التقريب مع تقدم الملكية الخاصة على العامة ، الى ذراه الكئيبـــة٠ ولعلنا نلاحظ أن هذا الحق فى شكله الاكثر حدة ، اصبح ويصبح فـــى زماننا الحالى بمثابة نتوء على مجرى التاريخ الانسانى ٠ ولقد استمـــر المصريون أموبيين مثلما استمروا شمسيين فى و جه الأعاصير الوافدة من غرب آسيا للقمر ـ الأب ٠

٤ــ بدأت مصر تدفع الجزية للأجانب بشكل منتظم فى أعقاب الهزيمـــة المريرة التى منيت بها أمام جحافل الفرس تحت إمرة الفاتح الآسيوى قمبـــز بن قورش فى عام ٥٢٥ ق٠م٠ وليس المجال مجال البحث فى أسبـــاب هذه الهزيمة أو تقصى المدى الذى بلغه وقت ذاك نفوذ الكهنة أو قـــوة الجنود المرتزقة وخصوصا من الاغريق والعبرانيين ٠ ولكن يكفى أن نشيـر الى أن أجدادنا العظماء قاوموا الغزاة الآسيويين ــ فيما يروى المــؤرخ الاغريقى الشهير هيرودوت ــ بقيادة الفرعون السىء الطالع " بسماتيبـك" الثالث ٠ (عنخ ــ كا ــ ن ــ رع) مقاومة باسلة ٠ لكن الفرس تمكنوا من أسر الفرعون المقاتل ثم منّ عليه قمبيز باطلاق سراحـــــه ، الا أن الفرعون الشامخ الأنف ــ ولا أقول الملك ــ استأنف تنظيم المقاومـــة المصرية ضد الآسيويين ٠ غير أن نهايته لاتزال غامضة ما بين رواية تذهب الى انه انتحر وأخرى الى أن الفرس قبضوا عليه ، مرة اخرى ، وصلبـوه وفى سائر الأحوال قدر الفرس على مصر جزية تبلغ ــ وفقا لهيـــرودت ــ الف تالنت من الفضة ، والتالنت يساوى ٥٦ رطلا ٠ ويضيف " هيرودت" أن الفرس كانوا يستغلون أيضا من معادنها ما يعادل هذا المقدار٠ ومنـذ



ذلك الحين أى منذ القرن الرابع قبل الميلاد استمرت مصر ، والأدق استمر المصريون يدفعون الجزية للأجانب حتى وقت حرنا طويلا ويئسنا أخيرا من تحديد نهايته ٠

لكن الفرس لم يأتوا الى مصر بديانة جديدة ، وبتحديد اكثر بديانة معادية لديانات المصريين ٠ ولم يرموا هذه الديانات بالوثنية ولم يحاولوا ازاحة آلهتهم القومية باله قومى جبار يصبو الى العالمية ٠ وفي نهاية المطاف لم يفرضوا لغة وثقافة أجنبية على أهل البلاد الأصليين ، ولو أنهم أفسحوا بطبيعة الحال مجالا لكتاباتهم السماوية فى تدوين أوامرهم الى جانب الكتابة المصرية بل واستعملوا فى ذلك بعض الأحيان اللغة الآرامية مستعينين فى ذلك باتباعهم الساميين وخصوصا من العبرانيين على نحو ما يشير اليه " الان جاردنر " عالم المصريات الكبير فى كتابه
Egypt of The Pharaohs P.369-370.

ويستطرد " ومثلما كان عليه الحال من قبل أخذ السكان الأصليون يواصلون أداء شئونهم الخاصة بلغتهم مستخدمين فى هذا المجال ذلك النوع المتصل وبكلمة افصح " المشبك " Cursive الى حد كبير من الكتابة ، وهذا ما أصبح يعرف لدى الاغريق باسم الديموطيقية" بل و"سمى بعض الفرس المقيمين بمصر أبناءهم بأسماء مصرية واتجهوا بصلواتهم الى ارباب المصريين واكمل ملوكهم بعض المعابد التى بدأها الفراعنة الصاويون لاسيما فى الدلتا والواحات الخارجة " وفقا لما يذكره د٠ عبد العزيز صالح فى كتابه " الشرق الأدنى القديم الجزء الأول ص ٣١٣" ٠

لكن التغير الخطير حقا بدأ مع وصول الاغريق من جنوب أوروبا ثم العرب من غرب آسيا ٠ وبادئ ذي بدء اود أن أسوق هاتين الملاحظتين : تتمثل الاولى فى أن المصريين كانوا يدفعون الجزية اى ضريبة الرأس بصفة أساسية ، تلك التى أسماها الأغريق Synataxis للبطالمة الذين حكموا مصر من عاصمتهم الاسكندرية أما مصر فهى التى كانت تدفع الجزية لحكام أجانب يعيشون خارج مصر أى فى عواصم اجنبيه من " يثرب " الى الكوفة الى دمشق الى بغداد ابان حكم العرب ٠ وتتلخص

الملاحظة الثانية فى أن الاغريق ـ كالفرس ـ لم يأتوا الى مصر بديانة تحقر ديانات المصريين وتصمها بالوثنية ٠ وكان لهذين الأمرين نتائج محددة اذ اتسم الحكم فى عهد الاغريق بقدر محدود وغير مستمر من التسامح واللين وفى عهد الأخيرين اى العرب بقدر عظيم وشبه دائم من التعصب والقسوة ٠ وتكاد قرارات العفو التى أصدرها البطالمة ـ الاغريق ـ سيرا على نهج الفراعنة ـ عن الثوار المصريين الذين لم يكفوا طوال الحكم الاغريقى ـ البطلمى عن تنظيم الانتفاضة تلو الانتفاضة أن تساوى عمليات الابادة الجماعية التى شنها الخلفاء العرب ـ المسلمون سواء بأيديهم أو بأيدى ولاتهم وقواد هم العسكريين ضد الثوار المصريين الأقباط ، انتفاضات وثورات متتالية نظمها ثوار لم ينالوا سوى اللعن والتكفير ـ ويبدو أن الثوار كفار فى كل زمان ومكان ـ سواء على أيدى الكهنة ابان عصر الاغريق ـ البطالمة وأيدى القس على عهد العرب المسلمين؛ وبتعبيرنا الأثير ، على أيدى متعلميهم زمان ذاك ٠ وان لم يمنع الأمر بطبيعة الحال تصدر بعض الكهنة أيام الاغريق او نفر من القساوسة أيام العرب لمقاومة الحكام الأجانب ٠ ونقرأ فى قرار الكهنة المصريين الذين أصدروه عقب استيلاء الجنود الاغريق فى صيف عام ١٩٧ ق٠م ، أبان حكم بطليموس أبيفان على مدينة " لوكوبوليس " أى " أسيوط " الثائرة ضد العسف والجور أن الملك " قتل كل الكفار الذين وجدهم فيها على نحو ما فعل قديما هرمز /حورس بن ايزيس وأوزوريس مع الثوار فى المكان نفسه " ! ويعلق صاحب كتاب " مصر فى عصر البطالمة " على الأمر بقوله " على انه وان استكان بعض الكهنة والأهالى للبطالمة فان غالبية الأهالى العظمى كانت تعلل الأمل بطرد الطغاة الاجانب واقامة فرعون قومى على نحو مايبدو لنا من نبوءة صانع الفخار " وعلى نحو مماثل يقف القساوسة المسيحيون أى المتعلمون المصريون وقت ذاك من ثورة المصريين البشموريين فى شمال الدلتا الذين أبوا الرضوخ لعسف " متولى الجزية والخراج " ونظموا ثورة استمرت عدة أجيال متتالية دون أن يخمدوا أوراها من أواخر حكم الأمويين حتى عهد الخليفة العباسى عبد الله المأمون رضى الله عنه وأرضاه الذى فرض عليهم الابادة ، هذه المرة ٠ وهاهو ساويرس بن المقفع يروى الفصل الأخير للثورة فى كتابة المعروف

" تاريخ البطاركة " ص ٢٧٠/٢٧١ " ففعل أبوانا البطر كان ، ديونوسيوس - بطرك أنطاكية والبابا يوساب الـ ٥٢ بطرك مصر ، وسارا الى البشموريين وسألاهم ثم نصحاهم ووبخاهم ليتخلوا عن أفعالهم .فلم يجيبوا ولا قبلوا سوالهما فعادا وأعلما المأمون بذلك فأمر المأمون حينئذ" الافشين الأمير " بأن يسير اليهم بعسكره وأن يقاتل البشموريين فلم يقدر عليهم لتحصن مواضعهم بالمياه بل كانوا يقتلون من عسكر الافشين كل يوم جماعة فلما اتصل الخبر بالمأمون سار بجيش وانحدر الى هناك وأمر أن يحشدوا جميع من يعرف طرق البشموريين من أهل المدن والقرى المجاورة لهم ، ومن كل الأماكن ، الذين يعرفون طرق تلك الأماكن وكانت العساكر تتبعهم الى أن سلموا لهم البشموريين فهلكوهم وقتلوهم بالسيف بغير اهمال ونهبوا وأخربوا مساكنهم وأحرقوها بالنار وهدموا بيعهم وتم عليهم قول داوود النبى فى المزمور رقم ٧٧ " أسلم قوتهم للسبى ومالهم لأعدائهم وأسلم شعبه للسيف ولم يشفق على ميراثه " ! ! ! ولما نظر المأمون كثرة القتلى أمر العسكر أن ترفع السيف والذى بقى منهم " أى من البشموريين " أسره الى مدينة بغداد من الرجال والنساء " !

وغنى عن البيان أن هذه الثورات كانت تحمل طابعا قوميا بارزا وفى نهاية التحليل طابعا طبقيا ، وليس أدل على ذلك من انضمام اغريق متمصرين الى الأولى وعرب متمصرين الى الثانية ، فالمحرك الأول ولاشك ، كان عسف الحكام وثقل الضرائب بشتى انواعها وأعمال السخرة والسلب والنهب الذى نظموه ضد المحكومين .

وسرعان ما انتشرت المسيحية أى الشعبة الثانية للديانة الابراهيميه وفق اقتراحنا ، فى مصر عن طريق اللغة اليونانية . وكان طبيعيا ان تقف هذه الشعبة نفس الموقف الابراهيمى التقليدى ضد الديانات المصرية القومية بدعوى أنها وثنية ، ولاتزال المعابد المصرية التى حولها المسيحيون الورعون الى كنائس شاهدا يوازى ذلك الشاهد الآخر على تحويل الكنائس الى جوامع على أيدى اتباع الشعبة الثالثة أعنى المحمدية . ولقد أوعز ب فى رواية وبارك فى رواية أخرى البابا كيرلس الكبير أو كيرلس الأول الملقب بعامود الدين قتل الفيلسوفة المصرية الموهوبة "هايباتيا" التى كانت تعتز ب/ وتدافع عما أسماه المسيحيون وقت ذاك بالوثنية الاسكندرانية

فلقد قام الغوغاء الأتقياء بسحب الفيلسوفة من عربتها الحنطور الى داخل الكنيسة القيصرية الكبرى وفسخوا جسدها اربا اربا . وكان ذلك خلال الصوم الكبير فى ربيع ٤١٥م وفقا لما جاء فى قاموس الاعلام المسيحيين
Dictionary of Christian Biography
لكن هذا البابا لم ينجو (ينج لمن يرغب) هو نفسه من وصف المسيحيين الغربيين له فى مجمع " خلقيدونيا " عام ٤٣٥م ب" الفرعون العنيد " لاصراره على مبدأ الطبيعة الواحدة من طبيعتين غير ممتزجتين كالحديد والنار للسيد المسيح أى Monophysite لا الطبيعتين المنفصلتين له Polyphysite ونستطيع أن نقارن أفعال المسيحيين هذه بأعمال المسلمين بدء من حرق مكتبة الاسكندرية على أيدى الغازى الأسيوى عمرو بن العاص والاحرى ابن النابغة سيرا على نهج اخوانه فى حرق سجع الكهان بالحجاز وحرق أقرانه وخصوصا الصحابى الجليل سعد بن وقاص رضى الله عنه لتراث الفرس فيما يذكر الفيلسوف التونسى الشهير " ابن خلدون " فى مقدمته . ويقول الرحالة عبد اللطيف البغدادى خريج مدرسة " النظام " فى عاصمة الخلافة العباسية بغداد ، و" الأزهر " بالقاهرة ، الذى زار مصر خلال القرن العاشر الميلادى فى كتابه العالى الشأن " الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر " (ورأيت أيضا عامود السوارى من هذه الاعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة والاعمدة تحمل السقف وعمود السوارى عليه قبة هو حاملها وأرى الرواق الذى كان يدرس فيه أرسطو طاليس وشيعته من بعده ،دار العلم الذى بناها الاسكندر حين بنى مدينته ، وفيها خزانة الكتب التى حرقها عمرو بن العاص باذن عمر رضى الله عنه .ص ٢٨) .

لكن أخطر مافعله هؤلاء اولئك هو محاولة فرض لغتهم على السكان المحليين أى المصريين . وكان المتعلمون فى الحقبتين التاريخيتن هم أسرع بنى وطنهم فى نبذ دين آبائهم والتخلى عن لغتهم الام وتبنى اللغة الجديدة ، لغة الغزاة الحكام ، وذلك لأسباب هزيلة وباقتناع أشد هزالا . وتذكر الدكتورة الجليلة سيدة اسماعيل كاشف فى كتابها

الهام " مصر فى عصر الولاة من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية " :
(ولا ريب فى أن انتشار اللغة العربية فى مصر ميزة للعرب على غيرهم
من الفاتحين ، فان الشعوب المختلفة التى توالت على مصر قبل العرب لم
تستطع القضاء على لغة المصريين ٠ وهذه ظاهرة تستحق امعان النظر
لأن تنازل شعب عريق فى المدنية كالشعب المصرى عن لغته واتخاذ لغة
شعب لايوازيه فى الحضارة أمر غير عادى ٠ ص ١٠٤) وتضيف : (وبينما
نرى الشاعر الفردوسى فى ايران ينظم ملحمة " الشاهنامة " بالايرانية
الحديثة فى القرن الرابع الهجرى ، نجد رجال الدين الاقباط فى مصر
يكتبون باللغة العربية ويخاطبون أبناء دينهم باللغة العربية بعد أن
اصبحت لغة التخاطب فيما بينهم) ولعل الدكتورة الفاضلة تقصد على وجه
الخصوص ساويرس بن المقنع اسقف الأشمونيين الذى كتب " تاريخ البطاركة"
باللغة العربية ابان القرن العاشر الميلادى ٠ أى الرابع الهجرى ،اى نفس
قرن الشاعر الفردوسى صاحب الشاهنامة ٠ وهذه سمة خاصة ، على مايبدو
لنا ، بالمتعلمين المصريين ٠ فلو رجعنا بذاكرتنا الى الوراء قليلا ، الى
العصر الموازى فى رأينا للعصر العربى وهو العصر الاغريقى / البطلمى ،
مع احترامنا لكافة مابين العصرين من فروق وافتراقات . فلسوف نرى أن
" كل الدلائل تشير الى أنه كانت هناك محفوظات كثيرة باللغة اليونانية
فى العصور الأولى لتغلغل هذه اللغة فى كل الميادين الروحية والطقسية
داخل الكنيسة وخارجها ٠ وكانت هى لغة التخاطب بين المثقفين والرهبان
ونعلم أنها كانت لغة الرهبان فى أديرة ظاهر الاسكندرية ، وأنبا مقار كان
يتكلم اليونانية مع زائريه . وقصة الحوار الذى سجله لنا أنباء اشعياء
وهو يتحدث الى رهبان أديرة الاسكندرية معروفة " ٠ الرهبنة القبطية ٠
الاب متى المسكين ص ٥٦٢ ٠ واذا ما عرفنا ان " مانيتون " السمنودى
كبير كهنة هليوبوليس ، وكان تبعا لذلك فى طليعة أساتذة معهدها
العلمى قد وضع تاريخه الذى سجل فيه أسماء الفراعنة المصريين من عهد
" مينا " الى عهد الفتح الفارسى الأخير على يد أجرزسيس الثالث
حوالى عام ٣٤٣ ق ٠م باللغة اليونانية ، فاننا نكون أمام ظاهرة تكاد
تكون خاصة بالمتعلمين المصريين ٠ ويتأكد هذا الأمر اذا ما صادفنا فى
عصرنا الحديث ، وعلى سبيل المثال لا الحصر أستاذ التاريخ القديم

بجامعة الاسكندرية صاحب كتاب " دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم حركات التحرير فى مصر القديمة " وبعد أن تتبع بجهد محمود هـــذه الحركات بدءاً من الفراعنة العظام الذين خاضوا نضالا طويل الأمد ضـــد الهكسوس واستشهد بعضهم خلاله حتى فتح الاسكندر المقدونى لمصر، يقول فى خاتمة كتابه : " وبقيت مصر كذلك – أى مزرعة لأوروبا – حتى جاء عمرو بن العاص يحمل معه هداية الاسلام ونور الايمان فآمنت مصر بربها الواحد الأحد ، واعتنقت الاسلام ديانتها الخالدة والى الأبد ان شاء الله ونطقت بالعربية لغة القرآن ٠ ص ٤٠٢) ٠

وعلى الجانب الآخر يكتب أستاذ كبير فى مجلد " المقتطف" رقم ١٠٤ – مارس ١٩٤٦ ص ٢٢٩ – ٢٣١، تحت عنوان " اللغـــة القبطية نشأتها وتطورها " (٠٠٠ لذلك لانعجب أن نرى بعد ذلـك شعب مصر يرحب (هكذا) بقدوم الاسكندر ويرسم كهنة أمون له ابنـا لكبير آلهتهم آمون ،ومنحه سائر الألقاب الفرعونية الخمسة ٠ وتوفـــى الاسكندر وورثه البطالمة ، وأخذت الصلة بين مصر واليونان تقوى حتـى صارت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية وقد بقيت كذلك حتى دخـــول العرب مصر ٠٠٠٠ وكلما يتقدم بنا العهد نحو المسيحية تتثبت فى مصر فتهزم أمامها الوثنية (هكذا) ويخطر الامبراطور قسطنطين الى الاعتراف بها دينا رسميا له وللدولة حوالى ٣٢٥م، وحُوِّل خلفه بعض المعابـــد المصرية القديمة الى كنائس ، كما أغلق الباقى منها ثم جاء الامبراطـــور جوستنيان فأرسل قائده " نرسيس " الى جزيرة " فيلة " حيث قضـى على البقية الباقية من عبادة ايزيس واوزيريس) !

ترى متى يتحول المتعلمون المصريون عن التنفس بخياشيم أجنبية ؟

٥ـ يخطئ من يظن أننا ندين المتعلمين المصريين بشتى أطيافهم وفى سائر مراحل تاريخنا القديم والوسيط والحديث والمعاصر بصفتهم متعلمين ومصريين ، اذ أن هذه الادانة تنصب من جانبنا على رؤوسهم لفقدانهم لهاتين الصفتين على وجه التحديد ، مهما أدعوا غير ذلك وأوغلوا فى الادعاء فحملوا الدرجات العلمية والألقاب الأكاديمية والجوائز المحلية والعالمية . والينا مايرضعونه منذ الصف الخامس الابتدائى من التعليم الأساسى الذى يعد أخطر مرحلة تعليمية على وجه الاطلاق وأنقل ما أنقله عن كتاب " وطنى مصر " الذى ألفته كوكبة من كبار المتعلمين المصريين ص٢١٧ تحت عنوان فرعى " أسباب فتح العرب مصر " (كانت رسالة الاسلام رسالة عالمية وليست قاصرة فقط على العرب فى شبه الجزيرة العربية حيث قال الله تعالى للنبى محمد عليه الصلاة والسلام " وما أرسلناك الا رحمة للعالمين " آية رقم ١٠٧ سورة الأنبياء ... ولهذا حرص المسلمون على تبليغ ونشر الدعوة الاسلامية بعد وفاة الرسول الى البلاد التى لم يصلها الاسلام ولم تعرف عنه شيئا .

ان استيلاء العرب على مصر كان أمرا ضروريا بعد أن نجح العرب فى فتح الشام لأن وجود جيوش الروم فى مصر كان يسمح لهم بأن يشنوا هجوما على بلاد الشام برا وبحرا لطرد العرب منها .

وكان العرب يعرفون عن مصر خصوبة ووفرة خيراتها وثرواتها وان الاستيلاء على مصر يفتح الباب أمام نشر الدعوة الاسلامية فى شمال افريقيا ووصولها الى مناطق جديدة) .

هذا هو جوهر مايتعلمه ويعلمه المتعلمون المصريون فى سائر مراحل تعليمهم ولانغالى اذا قلنا بل ويشكل ملخصا موجزا لأطنان الرسائل الجامعية التى يتقدم بها طلبة الماجستير والدكتوراه فى أقسام التاريخ المتخصصة فى جامعاتهم بدء من القاهرة وانتهاء بالأزهر مرورا بالجامعات الاقليمية . ورغم الغموض الكثيف أو الوضوح الساطع الذى يكتنف الجملة الأخيرة بشأن الصلة بين خصوبة الأرض ووفرة الخيرات والثروات وبين الحماس لنشر دعوة دينية سامية فان السؤال الذى يطل علينا برأسه هو:

هل جاء العرب كي ينشروا دعوة دينية حنفية تخاطب العالمين أم جـــاءوا أيضا لنفس الغرض الذى جاء من أجله قبلهم الفرس والأشوريون والاغريـــق والرومان وجاء من اجله بعدهم الاتراك العثمانيون بقيادة السلطان الخليفة سليم الأول الملقب بالفاتح عام ١٥١٧ م ، وكان لايجهل دون شك وقت ذاك أن مصر " مفتوحة " منذ أواسط القرن السابع الميلادى وتسير وفـق الشريعة المحمدية ربما قبل أن يدخل أجداده هو شخصيا من بنى عثمـان الديانة المحمدية بعدة قرون ، وجاء من اجله اى ذلك الغرض بعدهـــم سائرا المستعمرين القدماء والجدد على حد سواء ؟؟؟ وبتحديد اكثر هـل جاء العرب كي يفرضوا الجزية كهدف رئيسى لهم ، أم كان هدفهم الرئيسى هو نشر الدعوة الجديدة ؟ وهل سعد أى خليفة من خلفاء الرســـول سعادة غامرة انتفضت لها جوانحه في عاصمته آيا كانت عندما شرع المصريون الأقباط يدخلون فى " دين الله أفواجا " بل هل استشعـــروا – اى اولئك الخلفاء – أى سعادة من اى نوع لذلك ؟ ولماذا كانت تلـــك السدود التى اقاموها امام دخول المصريين / الأقباط رحاب الدين الجديد، مرة بحجب اسم مسلمين عنهم واطلاق اسم " اسلميين " على اولئـــك الذين يعتنقون منهم دين محمد ، ومرة بالامتناع عن تحويـــل "أرض الخراج " الى " أرض العشور " رغم دخول أصحابها الدين الجديـــد ، ومرة اخرى باضفاء لفظ الاشراف على العرب الغزاة وخلع لفظ " الموالى " على المصريين أصحاب البلاد الأصليين حتى الذين يعتنقون منهم الديـــن الجديد ؟؟؟ .

أسئلة نظن انها على جانب من الأهمية غير منكور ، لكنها لـــم تطرأ وماكان لها أن تفعل ، على ذهن أى متعلم مصرى ، لاســـرا ولا علنا ، . . . . ، أو على الاقل لم يفصح عنها او عن مثلهـا أى متعلم مصرى سيان أبحر في العمق أو خوّض فى الضحل ، . . . . . . ، وذلك فى نطاق علمنا بطبيعة الحال .

ويجدر بنا فى هذا الصدد أن نعيد الى الأذهان كيـــف رأى أصحاب الابل : " درة العالم القديم " وفى عبارة الأميين المصرييـــن

" أم الدنيا " وفى قول النبى العبرانى المتأخر زمنا " أشعيا" كجنة الرب كأرض مصر " الاصحاح الرابع • آية رقم ٣٠ سفر أشعياء ". يورد ابن تغرى بردى فى كتابه " النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة" ص ٣٢ ـ ٣٣ كتاب الوالى عمرو بن العاص :" ورد كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يسألنى عن مصر • اعلم يا أمير المؤمنين ان مصر قرية غبراء وشجرة خضراء • طولها شهر وعرضها عشر ، يكتنفها جبل اغبر ورمل اعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات • ميمون الروحات • تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر • له أوان يدر حلابه ويكثر فيه دباپه • تمده عيون الأرض وينابيعها حتى اذا ما اصلخم عجاجه وتعاظمت أمواجه فاض علىجانبيه فلم يكن التخلص من القرى بعضها الى بعض الا فى صغار المراكب وخفاف القوارب وزوارق كأنهن فى المخايل ورق الأصائل فاذا تكامل فى زيادته نقص على عقبيه كأول ما بدأ فى جريته وطما فى درته فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة وذمة مخفورة يحرثون بطون الارض ويبذرون بها الحب يرجون بذلك النماء من الرب,لغيرهم ماسعوا من كدهم فناله منهم بغير جدهم فاذا احدق الزرع وأشرق ، سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء •• اذ هى عنبرة سوداء فاذا هى زمردة خضراء فاذا هى ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء الذى يصلح هذه البلاد وينميها ويقر قاطنيها فيها ، الا يقبل قول خسيسها فى رئيسها ، وألا يستأدى خراج ثمرة الا فى غير أوانها وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها ، فاذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الاحوال تضاعف ارتفاع المال والله تعالى يوفق فى المبدأ والمآل " ولكن كيف فتح العرب مصر ؟ •

يقول ابن عبد الحكم فى كتابه الشهير ص ٤٧" حدثنا أبو الأسود النصر بن عبد الجبار حدثنا لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب أن عمرو بن العاص دخل مصر بثلاثة الاف وخمسمائة " رجل " ثم قدم الزبير بن العوام فى اثنى عشر ألف وتلقاه عمرو ثم اقبلا يسيران ثم لم يلبث الزبير أن ركب وطاف بالخندق ثم زق الرجال حول الخندق "•

ولكن كم كان يبلغ عدد المصريين / الاقباط وقت ذاك ؟
يروى ابن عبد الحكم " حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا الليث بن سعد عن يزيد بى أبى حبيب ان المقوقس (والى الرومان الشرقيين على مصر) صالح عمرو بن العاص على أن يدفع الاقباط دينارين على كل منهم. وكان المقوقس قد جباها قبله بسنة واحدة عشرين ألف ألف أى عشرين مليون دينار" ويوضح الأمر " وأحصوا عدد القبط " المصريين" يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الدينارين . رفع بذلك عرفاؤهم بالايمان المؤكدة فكان جميع من أحصى من جميع القبط " المصريين "٠ فيما أحصوا وكتبوا ورفعوا اكثر من ستة ألف ألف نفس . فكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف فى السنة .

واذا ماتذكرنا أن الذين استحقت عليهم الجزية أى ضريبة الرأس ليس بينهم " أمرأة ولا شيخ ولا صبى دون الخامسة عشرة " فان عدد القبط . أى المصريين يكون قد تراوح وقت ذاك حوالى رقم ١٢ مليون نسمة على الاقل أى ٦ أس ٢ ، خصوصا وان عبد الله بن سعد" رضى الله عنه" الذى استعمله عليها عثمان بن عفان رضى الله أيضا عنه جمعها أربعة عشر الف ألف دينار وقال عثمان لعمرو: يا أبا عبد الله درت اللقحة باكثر من درها الأول . قال عمرو : أضررتم بولدها ص ١١١ . المرجع السابق ولسنا نغفل تقديرات عديدة أخرى لعدد القبط / المصريين لدى الفتح / الغزو العربى . لكن اقل هذه التقديرات التى يعتد بشأنها لاتهبط بعدد المصريين / القبط الى أقل من ستة ملايين نسمة . ولكن هل وقف هؤلاء البشر ، الذين يبلغون الملايين ، تحت قيادة متعلميهم.أى هل وقف ذلك الجسم الضخم تحت امرة ذلك الرأس موقف المتفرج أمام غزو بضعة آلاف لبلادهم . كلا وألف كلا ! .

يستطرد بن عبد الحكم " وكان بالاسكندرية أسقف للقبط يقال له أبو بنيامين فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص كتب الى القبط/ المصريين يعلمهم ألا تكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقى عمرو فيقال أن القبط الذين كانوا فى الفرما قرب " بورسعيد حاليا" كانوا يومئذ لعمرو أعوانا " !!! .

وكان من الطبيعى أن يمن الغازى الأسيوى رضى الله عنه باعفاء الرهبان ، أى القادة الروحيين بصفة أساسية للأمة المصرية وقت ذاك اى طبقة والاحرى شريحة الأنتيلجبنسيا التى تحوزها ، وفى عبارتنا الأثيرة ، متعلميها ، من الجزية • ولو أن الأمر لم يدم طويلا اذ قام الوالى عبد العزيز بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥ هـ) بالغاء هذا الاعفاء وفرض الجزية على الرهبان أيضا بواقع دينارين عن كل راهب وزاد على ذلك بأن أمر ألا يترهب أحد بعد ما أحصاه ، فيما يروى القلشندى (١٣٥٥ ـ ١٤١٨م) فى كتابه الشهير " صبح الأعشى ". ويذكر المقريزى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مالبث أن كتب الى واليه على مصر عمرو بن العاص (والأولى ابن النابغة رضى الله عنه) " أن اختم رقاب أهل الذمة بالرصاص (هكذا) وليظهروا مناطقهم ويجزوا نواصبهم ويركبوا عرضا ولا تضرب الجزية الا على من جرت عليه الموسى دون النساء والولدان ولا تدعهم يتشبهون بالمسلمين فى ملبوسهم " ونقرأ فى كتاب " نهاية الرتبة فى طلب الحسبة " تأليف عبدالرحمن بن نصر الشيرزى وقام على نشره الباز العرينى لجنة التأليف والترجمة والنشر • القاهرة ١٩٤٦ ص ١٠٦ " وينبغى أن يشترط عليهم ما شرطه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى كتاب الجزية الذى كتبه لأهل الذمة ويأخذون بلبس الغيار (الملبوس الذى يتميز به أهل الذمة عن المسلمين فى القرون الوسيطة • المقريزى جزء "أ" ص ١٣٥ حاشية رقم ٤) فان كان يهوديا وضع على كتفه خيطا أحمر أو أصفر ، وان كان نصرانيا شد فى وسطه زنارا (حزام يشده المسيحى فى وسطه تمييزا له من المسلم) أبو يوسف كتاب الخراج ص ١١٧) وعلق فى عنقه صليبا وان كانت امرأة لبست خفين احدهما أبيض والآخر اسود • واذا عبر الذمى الى الحمام ينبغى ان يكون فى عنقه طوق من حديد أو نحاس أو رصاص ليتميز به عن غيره ويمنعهم " المحتسب " من ركوب الخيل وحمل السلاح والتقلد بالسيوف واذا ركبوا البغال ركبوها بالأكف (جمع اكف وهو برذعة الحمار • القاموس المحيط) عرضا من جانب واحد ، ولايرفعون بنياهم عن بنيان المسلمين ولايتصدرون فى المجالس ولايزاحمون المسلمين فى الطرقات بل يلجأون الى أضيق الطرق ، ولايبدأون بالسلام ولا يرحب بهم فى

المجالس • ويشترط المحتسب عليهم ضيافة من مر بهم من المسلمين وانزالهم في بيوتهم وكنائسهم ويمنعون من اظهار الخمر والخنزير والجهر بالتوراة والانجيل وضرب الناقوس ومن اظهار أعيادهم ورفع الصوت على موتاهم فجميع ذلك شرطه عليهم عمر بن الخطاب فيراعى المحتسب أحوالهم في جميع ذلك ويجبرهم عليه ويأخذ منهم الجزية على قدر طبقاتهم ـ على الفقير المعيل دينارا وعلى المتوسط ديناران والغني أربعة دنانير ـ عند رأس الحول • فاذا جاء المحتسب أو العامل لأخذ الجزية اقامه بين يديه ثم لطمه على صفحة عنقه ويقول له " أد الجزية يا كافر " ويخرج الذى في يده من جيبه مطبوقة على الجزية فيعطيها له في ذلة وانكسار ••" •

حقا بدأ القبط أي المصريون ـ وقت ذاك يدفعون الجزية بصلح أبرم بين عمرو بن العاص أي بين والي مصر العربي الجديد وبين واليها البيزنطي السابق المعروف لدى المؤرخين العرب باسم المقوقس • ولكن هذا الصلح روجع بعد ذلك بجيلين او ثلاثة أجيال فحسب • يقول ابن عبد الحكم :" حدثنا أبو الأسود النقر بن عبد الجبار وعبد الله بن مسلمة قالا حدثنا بن هليعة عن عبد الملك بن جنادة عن عبدالملك بن جنادة كاتب حيان بن سريح من اهل مصر من موالي قريش قال : كتب حيان الى عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل وخامس الخلفاء الراشدين رضى الله عنه يسأله ان يجعل جزية موتى القبط/ المصريين على احيائهم فسأل عمر عراك بن مالك فقال عراك: ما سمعت • لهم بعهد ولا عقد وأنما أخذوا عنوة بمنزلة العبيد فكتب عمر رضى الله عنه أن جزية موتى القبط أي المصريين على احيائهم ! ص ٦٧" وازاء قول عمرو بن العاص رضى الله عنه وفقا لما يورده القلقشندى وغيره كثيرون" من كتمني كنزا فقدرت عليه قتلته " وماذكره ابن عبد الحكم من ان عمروا قتل أحد أثرياء الصعيد ويدعى بطرس " فكان ذلك كافيا كي يخرج الاقباط أي المصريون كنوزهم خوفا من القتل " ، ازاء ذلك، يحار المرء أمام هذا السؤال : أكان هذا الاغتصاب الذى لامراء فيه يدخل جيب عمرو بن العاص رضى الله عنه أم يدخل بيت المال ؟

فى سائر الأحوال أنزل الغزاة الأسيويون أهل البلاد الأصليين منزلة العبيد ، سواء دخلوا فى دينهم أفواجا أم بقوا على دين أجدادهم . ويذكر ابن عبد الحكم : خرج أبو سلمة بن عبد الرحمن يريد الاسكندرية فى سفينة فاحتاج الى رجل يقذف (يجدف) به فسخر لذلك رجلا من القبط فكلم فى ذلك فقال انما هم بمنزلة العبيد ان احتجنا لهم " .

وغنى عن البيان أن الغزاة العرب صاروا أو صيّروا أنفسهم أشرافا لايزوجون بناتهم لأهل البلاد الأصليين حتى ولو أسلموا وانحدروا عن آباء وأجداد مسلمين حسنى الاسلام ،وبذلك يكون جليا بما لاريب فيه ، أن الدين الجديد دين عربى محض ، وعند ذلك انهمك الأقباط المسلمون فى اثبات عروبتهم كذبا وزورا ، ودفعوا فى ذلك الرشاوى للقضاة الشرعيين فيما وعاه لنا تاريخ العصور الوسيطة ، وفضلا عن كل ذلك يستطيع المرء ان يتأمل طويلا مراسلات الخلفاء مع ولاتهم العرب / المسلمين :

كتب عمر الى عمرو رضى الله عنهما : " الى العاص بن العاص فانك لعمرى لاتبالى ان سمنت أنت ومن معك وأن اعجف أنا ومن قبلى فياغوثاه ثم ياغوثاه " فرد عليه عمرو" أما بعد فيالبيك ثم يالبيك أتتك عير " حصير " أولها عندك وآخرها عندى مع أنى أرجو أن أجد السبيل الى أن أحمل اليك فى البحر ثم أن عمروا ندم على كتابه فى الحمل الى " المدينة " فى البحر وقال " ان امكنت الخليفة من هذا خرب مصر وتقلها الى " المدينة " فكتب اليه " انى نظرت فى أمر البحر فاذا هو عسر لايلتأم ولا يستطاع " فكتب اليه الخليفة عمر رضى الله عنه " الى العاص ابن العاص . فقد بلغنى كتابك تعتل فى الذى كنت كتبت الى به من أمر البحر . وأيم الله لتفعلن أو لأقلعنك باذنك أو لأبعثن من يفعل ذلك فعرف عمرو أنه الجد من عمر بن الخطاب ففعل فبعث اليه عمر أن لاتدع بمصر شيئا من طعامها وكسوتها وبصلها وعدسها وخلها ، الا بعثت الينا منه ص ١١٠٣ المرجع السابق " .

وينقل ابن عبد الحكم عقب فتح الاسكندرية للمرة الثانية على ايدى عمرو بن العاص ابان خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنهما " فلما

هزم الله الروم أراد عثمان عمرا أن يكون على الحرب وعبدالله بن سعد على الخراج فقال عمرو : أنا اذن كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها فأبى عمرو ص ١٢١ " . أكان غريبا والحالة تلك ، أن يدخل الاقباط اى المصريون وقت ذاك فى الدين الجديد أفواجا دون طمع ، حاشا فى وضع هـذه الاعباء عن كاهلهم ؟ ولكن ماذا كان رد فعل الذين قدموا منغرب آسيا بهدف معلن هو نشر الدعوة التى دعا بها الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

" كتب عبد الملك بن مروان الى عبد العزيز بن مروان أن يضع (يسقط)الجزية على من أسلم من اهل الذمة فكلمه ابن جحيرة فى ذلك فقال :أعيذك (هكذا !) بالله أيها الأمير أن تكون أول من سن ذلك بمصر ، والله ان اهل الذمة يتحملون جزية من ترهب منهم فكيف تدعها على من اسلم منهم فتركهم عند ذلك ص ١٠٧ . المرجع السابق) ويضيف ابن عبد الحكم " وحدثنا عبد الملك بن مسلمة حدثنا ابن وهب عن محمد بن عبد العزيز عن ابن جريج : ان رجلا أسلم على عهد عمر فقال : ضعوا الجزية عن أرضى فقال عمر: لا . ان أرضك فتحت عنوة ،وفى عبارة أخرى لم يعد الاسلام هو الفيصل سواء بالنسبة للجزية ، على الرؤوس او الجزية على الأرض المسماة بالخراج ، فكان الذين يعتنقون الدين الجديد يهددون ، من ثم ، موارد الخزانة الأموية ، والخزانة العباسية ثم العثمانية ، لذلك لزم عليهم أى على المصريين أن يستمروا فى دفع الجزية عن رؤوسهم أحيانا وأحيانا اخرى عن أرضهم التى تظل " كافرة رغم اسلامهم " حسب تعبير المفكر الجزائرى أو التونسى العفيف الأخضر .

وقد يكون من الظلم لأنفسنا أن نطوى هذه الفقرة دون ان نضع سؤالنا على هذا النحو: هل نهض اهل المدينة المنورة أو يثرب الى فتح الطائف على بعد مسيرة نصف نهار على القدم ، فى قلب الحجاز ، لا مصر ، كى ينشروا الدعوة المحمدية وحسب أو حتى بصفة رئيسية ؟ يروى الامام حمزة بن الحسن الأصفهانى المتوفى نحو ٣٥١ هـ فى "الدرر الفاخرة فى الأمثال السائرة " ص ١٨٢ طبعة دار المعارف ومن حديثه أى حديث الذى سار فيه مثل " أخنث من هيت " أنه دخل يوما

دار أم سلمة ورسول الله صلى الله عليه وسلم عندها ، فأقبل على أخ أم سلمة عبدالله بن أبى أمية فقال : ان فتح الله عليكم الطائف فسل أن تنفل " تعطى " بادية بنت عيلان بن سلمة بن متعب الثقفية ، فانها مبتلة هيفاء .. شموع نجلاء . تناصف وجهها فى القسامة ، وتجزأ معتدلا فى الوسامة فان قامت تبنت ، وان قعدت تثنت وان تكلمت تغنت اعلاها قضيب وأسفلها كثيب ، اذا أقبلت أقبلت بأربع واذا أدبرت ادبرت بثمان مع ثغر كالاقحوان ، وشئ بين فخذيها كالقعب المكفأ كما قال قيس بن الخطيم :

تغترق الطرف وهى لاهية
كأنما شف وجهها نزف
بين شكول خلقتها
قصد فلا جبلة ولا قضف

فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : مالك سباك الله . ماكنت أحسبك الا من غير أولى الاربة من الرجال . فلذا كنت لا احجبك عن نسائى . ثم أمر أن يسير به الى " خاخ " موضع بين الحرمين " ففعل ، فدخل فى اثر هذا الحديث بعض الصحابة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أتأذن لى يارسول الله أن اتبعه فأضرب عنقه فقال الرسول : لا . إنا أمرنا ألا نقتل المصلين " .

ذلك هو المشهد الذى وصفته فى فاتحة الحديث باشاعة الصمت وبث الروع ، اذ ينتهى الى هزيمة الزراع أمام الرعاة ، هزيمة لم تنزل بالزراع الى منزلة السبايا والعبيد وحسب بل الى حضيض الحضيض اى الى احتقار أنفسهم وفقدان الثقفى ذواتهم ، هزيمة داخلية علاوة على الهزيمة الخارجية، هزيمة تتغلغل حتى النخاع ، نخاع المتعلمين المصريين بصفة أساسية بطبيعة الحال ولكن ؟ .

٦ ـ أكان للزراعة أن تنهزم أمام الرعي أو هل كان للحضارة في عبارة أخرى أن تندحر أمام البداوة ؟

أخذت الديانة الأمونية ترث الأتونية شيئا فشيئا عقب الانقلاب الذى قام به الفرعون الشهير آمين ـ حوتب الرابع أو اخناتون الذى وصفه العالم الامريكى الكبير " جيمس بريستيد " فى كتابه " فجر الضمير " بأنه أعظم شخصية فى تاريخ البشرية ، وبمعنى آخر أخذ آمون أو آمون ـ رع ـ آتون على وجه التحديد يستبعد سائر الآلهة الأخرى عبر عملية غاية فى الخصوصية دون أن تنغلق بطبيعة الحال أمام السمة العمومية، اذ بدأ يترأسهم فى المجمع الالهى المصرى ويدمجهم فى ذاته ويحولهم الى أسماء وصفات له على نحو مافعل " ايل " فى المجمع الالهى السامى ، وفى جملة واحدة كاد " آمون " أو " الباطن / الدايم " ان يغدو " الاله الواحد الأحد " ، رب المصريين بل ورب العالمين على نحو ما دعا ـ أخناتون ـ لالهه آتون . ولم يكن ثمة شذوذ فى الأمر فلعلنا نعرف فى العصر الحديث كيف أن الكاثوليكية غدت شكلا من أشكال البروتستابينتية بعد عدة أجيال فحسب من مقاومتها لحركة البروتستانت فى أوروبا الحديثة ٠ ومرادنا لايعدو ان كهنة "آمون " أخذوا يحققون لأنفسهم الانفراد فى الساحة الدينية أى فى الساحة الدنيوية ـ الزمنية معكوسة ٠ ولقد واصلوا زحفهم نحو هدفهم فى السيطرة حتى ارتقى عرش مصر الدنيوى ، الكاهن الأعلى لآمون ، وهو حريحور حوالى ١١٠٠ق ٠م٠ ومنذ ذلك الحين بدأت تنبت ملامح المشهد الذى مر وصفه، فلقد بدا أن المصريين ، او المتعلمين المصريين تحديدا قد أصبحوا عاجزين عن التطور ، ودون ان نقع فى أسر المقولة المبتذلة بأن الأجدد دائما أفضل وأروع وأجدر فان الذين يعجزون عن التطور لاينهزمون فحسب بل ويسلمون أقدامهم دون وعى وبصر لبداية الطريق الذى ينتهى بهم الى الاندثار ، وهذا هو الخطر الذى يهدد العرب المعاصرين مالم يشرعوا فى نبذ عروبتهم أى بداوتهم على غرار ماينبذ أشقاؤهم العبرانيون عبرانيتهم أى بداوتهم على بعد رمية حجر منهم ، وفى عبارة أخرى ، مالم يتخلوا عن جلودهم التى ضاقت عليهم حتى لايفقدوا عمودهم الفقرى ونسغهم وفى

عبارة أشد وضوحا ، مالم يتخلوا عن شكل معين لوجودهم حتى لايفقدوا وجودهم ذاته ، وهذا درس بسيط وان كان بليغا ، يستطيعون أن يتعلموه حتى من بعض الزواحف وكل الاشجار ٠

يحار علماء المصريات طويلا أمام حقيقة ان المصريين القدماء توصلوا الى نحو ٢٤ علامة هجائية تشير كل منها الى صوت منفرد متميز كانت لتكفل لهم ان يكتبوا لغتهم بصورة أبجدية، وأعاروها لليونانيين عبر الفينيقيين كما أعاروها للعبرانيين وأشقائهم العرب وغيرهم من شعوب الشرق الأدني القديم ، كي يكتبوا بها لغاتهم بصفة جزئية على الأقل ٠ ويجمل بنا أن ندعو القارىء إلى عقد مقارنة بين حرف الشين على سبيل المثال لا الحصر بأسنانها الثلاثة ش ش شـ والشاى القبطية والشين الديموقيطية وأهم جميعا الشين الهيروغليفية التى رمز لها المصريون القدماء ببركة أنبتت ثلاث زهور من زهور اللوتس (البشنين) ومع ذلك ظل المصريون يحافظون أيضا على كتابة لغتهم لما يزيد على أربعة آلاف عام بالخط الهيروغليفى الذى احتاج الى جهد شاق ووقت مديد لتخريج نساخيه والاولى رساميه حيث بلغت علاماته نحو ٧٠٠ سبعمائة علامة مختلفة ٠ وهذه كتابة " غير منطقية تماما من الناحية العملية " على حد تعبير " مارينا سكريابين " رئيس قسم الابحاث للمركز القومى للبحوث العالمية بفرنسا فى مقال لها تحت عنوان " الكتابة والاسطورة والخلق فى مصر الفرعونية " ديوجين العدد رقم ٣٥ ـ مطبوعات اليونسكو ٠ وبذلك يكون المتعلمون المصريون القدماء قد كشفوا ومنذ ذلك الوقت المبكر من فجر الانسان عن آفة مرذولة تلازم المتعلمين فى كل زمان ومكان على ما يبدو : أن يسقطوا أسرى ماتعلموه ، وسيان تبحروا فى العلم أو طافوا بشطآنه فحسب ، فانهم لايصبحون سوى أعداء أشاوس له عندما يرفضون باصرار متخشب كل مايخالف ما تعلموه من قريب او بعيد ٠ ويطوف بالذهن سؤال حول ما اذا كان متعلمو العصور الوسيطة الذين تلقنوا أن الأرض مسطحة استنادا الى الكتاب المقدس وسائر كتبهم الدراسية شبه المقدسة يتخانفون ويصعرون أصداغهم ويعوجون مشيتهم أيضا مثلما يفعل متعلمونا فى الوقت الحاضر ٠ على ان

السبب الرئيسى وراء ذلك لايتجاوز فى ظننا ضمور أيديهم ، واليد هى أستاذ المخ . ، ولو أن فلاسفة الاغريق أورثونا احتقار العمل اليدوى ، عمل العبيد لصالح العمل الذهنى ، عمل السادة ، وبعبارة أخرى اعلاء شأن النظرية على التطبيق ونظريات اقليدس على معمار الهرم الأكبر . ويتأسس على ذلك وكنتيجة حتمية أن المتعلمين المصريين كانوا قد دخلوا مرحلة الشيخوخة أى ما أسموه بالقداسة واجلال التقاليد العريقة وهو ما لايزيد او ينقص عن محاولة بائسة لفرض الثبات على العالم المتغير . وكان منطقيا أن يسقط من أيديهم مشعل الحضارة المصرية ، أعظم حضارة عرفها العالم القديم دون منازع . وكان أن التقط الرعاة الأجانب رماده وعجنوه بأحقادهم ودونيتهم وأطماعهم وجاءوا به كسلاح ايديلولوجى الى مصر كى يقمعوها ويستذلوها ويستغلوها بنصله المتعدد الحدود . لكن قطاعا من المصريين كان هناك . تحتشد الأدلة والشواهد والقرائن ،لكننا نلتقط عفو الخاطر هذا الدليل الذى أراه أشد سطوعا وأقرب منالا لرقعة أوسع من المتعلمين المصريين القادرين وحدهم مع الأسف على القراءة: التقويم المصرى القديم.

اهتدى المصريون القدماء الى التقويم الذى يعد أقدم تقويم شمسى عرفه بنو الانسان فى العالم القديم ، اذ حسبوا بين كل ظهور صادق وظهور صادق آخر لنجم الشعرى الذى اعتبروه انثى وأطلقوا عليه اسم " سبدت " أى " جالبة الفيضان " فوجدوه ٣٦٥ يوما ، قسموها الى اثنى عشر شهرا قمريا وكسور لاتصل الى نصف شهر فاكملوا عدة كل شهر ثلاثين يوما وبقيت خمسة أيام اسموها الشهر الصغير او النسئ وكان ذلك منذ عام ٢٧٧٣ فى ارجح الآراء ، وان كان هناك من يعود بهذا التاريخ الى عام ٤٢٤١ق.م مثل " بريستيد " فى كتابه : تاريخ مصر القديم ص ٣ " وقد ألهمت المملكة الأخيرة سنة ٤٢٤١ ق.م أن السنة الشمسية تتكون من ٣٦٥ يوما " . هذه هى السنة الشمسية الفلكية التى توصل اليها المصريون وهى لاتفرق عن السنة المعروفة حاليا الابحوالى ربع يوم ، ولو أنهم أدركوا هذا الفرق بأنفسهم فى وقت لاحق ابان العصور الفرعونية . ويقول بسام حاتم عضو الجمعية الكونية السورية فى مجلة " آفاق علمية" الكويتية العدد السادس لعام ١٩٨٦ ص ٤٥ :

(ظهرت التقاويم الشمسية التى تعتمد على رصد حركة الشمس حصرا وكان الفراعنة أول من أخذ بهذا الاجراء بسبب تطور بنيتهم الزراعية) ولـــو أن الباحث الفاضل آثر ، سيرا على خطى الأسيويين الغربيين أن ينسب المصريين القدماء الى حكامهم ‧‧ وفى سائر الأحوال يقف هذا التقويـــم الشمسى وراء كافة التقاويم الشمسية التى ظهرت فى العالم القديم، وخصوصا لدى العبرانيين الذين عدلوا تقويمهم القمرى القديم تحت تأثير التقويـــم المصرى الشمسى باضافة شهر الى سنتهم القمرية كل سنتين أى تكون اثنـــى عشر شهرا فى السنتين الأولتين ثم ١٣ شهرا فى الثالثة وهكذا ‧ ويشيـــر قاموس وبستر ‧ Webster's Seventh New Collegiate Dictionary, P.118.

الى أن شهر " آب " فى السنة العبرية التى انتقلت الى السريانية وتسود حتى وقتنا الحاضر فى منطقة الهلال الخصيب كان يسمى قديما " أبيـــب " وهو الشهر الحادى عشر فى السنة المصرية المسماة دون أدنى خطـــــأ بالقبطية ، فالمصرية مرادف للقبطية ، واذا تذكرنا أن التقويم الرومانى كان قمريا ثم تحول الى تقويم شمسى على أيدى كاهن مصرى يدعى سوسيجتيـــس فى عام ٤٦ ق‧م وهو التقويم الذى دخلت عليه تعديلات طفيفة فـــى أوقات لاحقة حتى استقر على التقويم الجريجورى المعروف لدينا بالتقويـــم الأفرنجى الذى تبناه المصريون منذ عام ١٨٦٥ ابان عهد الخديوى اسماعيل فمعناه ان اكثر من ثلاثة أرباع البشرية يسيرون على تقويم مصرى الأصـــل وان حمل اسما غير مصرى، وفى عبارة " بريستيد " فى " تاريخ مصر القديم" ترجمة د‧ حسن كمال ص ٢٢ : يوليوس قيصر الرومان هو أول من أدخل التوقيت المصرى امبراطوريته ثم عم استعماله العالم" ‧ ولقد ظل العرب الحجازيون المعاصرون يقاومون تطور هذا التقويم حتـــى أضطروا قبل جيل واحد أو نحو ذلك الى صك سنة هجرية / شمسيـــة فيما يعرف باسم تقويم " أم القرى " التى يقصدون بها " مكة " أو " بكة " التى ضمت كعبة العرب الوثنيين ثم المسلمين منهم ‧

وغنى عن الذكر أن ذلك التقويم المصرى القديم لايزال حيا فـــى عقل ووجدان من يحلو لنا أن ندعوهم بالأميين فى الوقت الذى يجهلـــه

المتعلمون المصريون وبتحديد أكثر يفرض عليهم التعليم المصرى السائد ، ان يجهلوه وأن يجهلوا ارتباطاته خلال حصار الصمت المحكم حوله وحول الثقافة المصرية المحلية بصفة عامة • وقد لا أبالغ اذا قلت أن المصريين الذين يستطيعون تذكر الشهور الاثنى عشر فى السنة القبطية / المصرية يتناقصون كلما توغلوا فى مدارج التعليم ، دع عنك أن يربطوا بين هذه الشهور وايحاءاتها / توت ازرع ولافوت • بابه يغلب النهاية • هاتور أبو الذهب المنشور • كياك صباحك مساك ، تقوم من النوم تدور علا غداك وعشاك • طوبة فيه البرد والعجوبة " لاصلة بينها وبين أعجوبة العربية/ السامية " طوبة يخلى الصبية كركوبة • أوعا من مادية طوبة • الاسم لطوبة والفعل لأمشير • أمشير ابو الزعابير • أمشير يقول للقمح سير سير خلى القصير يحصل الطويل • برمهات قشش من الغيط وهات من كل الخيرات • برمودة دق العامودة • فى بشنس يتكنس الغيط كنس• بوءونة فلاق الحجر • أبيب أبو اللهاليب مسرا تجرى الماية فى الترع العسرة •

ما الذى حدث ؟

قدم الأميون المصريون الشهداء تلو الشهداء • ولقد وعى التاريخ لنا بعض أسمائهم مثل أتينيس وباساويرس وخسونوس وتروبا ستوس زعماء ثورة الدلتا الأبرار الذين شد بطليموس ابيفان وثاقهم الى عجلته الحربية وجرهم وراءه عراة وشوههم ثم أعدمهم ناقضا بذلك عهده معهم • حتى زعيم البشموريين " مينا ابن بقيرة " • وكان ذلك طبيعيا مادام هوءلاء هم الذين وقع على كاهلهم اكبر اعباء الجزية والخراج وسائر صنوف السخرة والضيافة القسرية والارتباع الجبرى على ايدى الغزاة الاجانب، يونانيين ورومان وعربا • لكن الذى يستحق منا نحن المتعلمين المصريين ، أن نرنوا اليه طويلا فى صمت عميق وتأمل أعمق هو : لقد كان الأميون المصريون ، دون متعلميهم هم الذين واصلوا احتضان الحضارة المصرية بعد سقوط مشاعلها ، فى أعماق وجدانهم ، وذلك فى وجه الثقافات " المتخلفة الأجنبية " للغزاة والوافدين • والأميون المصريون ، دون متعلميهم ، هم الذين طالبوا قادتهم الروحيين الذين تأغروا ابان سيادة الاغريق على المستوى الثقافى فى القرن الثانى الميلادى بأن يترجموا لهم الكتاب المقدس الى لغتهم التى

يفهمونها أى القبطية، وأنقذوا بذلك أحدث مرحلة ــ وقت ذاك ــ من مراحل
تطور اللغة المصرية القديمة • ومن نافل القول أن نذكر أن المتعلمين
المصريين خرصوا وقت ذاك أن يبتعدوا ، قدر وسعهم ، لدى ترجمتهم،
عن الألفاظ المصرية التى تذكرهم بما أسموه سيرا على نهج العبرانيين
والاحرى الابراهيميين بالوثنية • ويكفينا دون الدخول فى تفاصيل كثيرة
أن نشير الى ان متعلمى ذلك الزمان تعففوا واستحرموا ان ينقلوا كلمة
" الروح " الاغريقية الى " كا " [hieroglyph] أو " با " [hieroglyph] ، وفضلوا
الابقاء عليها يونانية كما هى ⲠⲚⲈⲨⲘⲀ ، وان حطت اداة
التعريف القبطية فى حالة المذكر ⲠⲒ ولكنهم . مع ذلك ،أحسنوا
صنعا عندما ترجموا ⲔⲨⲢⲒⲈ بمعنى الرب الى ⲚⲞⲨϮ وهو اسم
الرب باللغة المصرية القبطية وهو منحدر عن كلمة " نوتر " المصرية
الهيروغليفية التى كتبها المصريون القدماء هكذا [hieroglyph] فى غالب الأحيان •
ولايزال الأقباط المسيحيون يقولون فى صلواتهم: ϦⲈⲚ ⲪⲢⲀⲚ
ⲘⲪⲚⲞⲨϮ ⲚⲈⲘ ⲠϢⲎⲢⲒ ⲚⲈⲘ
ⲠⲒⲠⲚⲈⲨⲘⲀ ⲈⲐⲞⲨⲀⲂ ⲞⲨⲰⲞⲨϮ ⲘⲞⲨⲰⲦ ⲀⲘ
ومعناه باسم الله والابن والروح القدس الاله الواحد آمين ومعنى القول ان
ⲚⲞⲨϮ " نوتى " ذاك . ورغم كل شئ . هو آخر اسم مصرى
عبد خلاله المصريون " الاله الواحد الأحد " فى تاريخهم الطويل الذى
يمتد أكثر من ثلاثة الاف عام قبل الميلاد • وهذه حقيقة على جانب كبير
من الأهمية وان نازعه " كيريا " هذا الحق فى نصوص مقدسة عديدة
على رأسها القداسات الثلاثة الشهيرة الكيرلسى والباسيلى والجريجورى بفضل
أو بسبب نفوذ متعلميهم أى قادتهم الروحيين • والأميون المصريون هم
الذين واصلوا نهج الأجداد ، وهو نهج متحضر ، فى التعبد للالهة رقصا
فيما يسمونه " بالزكر " بالزاى وليس بالذال ؛ أى أنهم حوروا اللفظ
العربى / السامى وأترعوه بمعنى مقدس . فيما ينخرط متعلموهم ولايزالون
فى جدل عقيم حول ما اذا كان الرقص حلالا أو حراما • ونخشى ألا تصدم
هذه العبارة وجدان المتعلمين الذين ينزلون هذا الفن الراقى منزلة
الرجس ، فى غالبيتهم العظمى • وهكذا واصل الأميون المصريون نهج
اجدادهم وهو نهج ———

متقدم فى سائر الأحوال اكتشفه أجدادنا الفراعنة ـ فلقد كان هؤلاء أجدادا عظاما للمصريين المعاصرين يفخرون كل الفخر بالانتماء اليهم ـ ونفس الأمر يسير على التعبد غناء ، فلقد شحنوا اللفظ العربى / السامى " التجويد " بمضمون مصرى خاص بهم ، وليس مجهولا أن التجويد أو الغناء الذى نعرفه عن قرائنا العظام خاص بالمصريين المحدثين ، وهو منحدر عن المصريين القدماء أو الفراعنة كما يلذ للأسيويين الغربيين ان يطلقوا علينا ـ ولقد كان أولئك أجدادا عظاما لنا وان خجلوا بعض الخجل من ان يخرج من صلبهم امثالنا ـ وخصوصا متعلمونا ، وليس سرا ان الشيخ محمد رفعت الملقب عن جدارة بقيثارة السماء يجود او يغنى القرآن من مقام نهاوند ـ الغا ـ وان الشيخ مصطفى اسماعيل من مقام بياتى النوا ـ صول والشيخ عبد الباسط عبد الصمد من مقام صبا ـ النوا ـ صول والشيخ محمد صديق المنشاوى من مقام سيكا ـ المى ٠٠ ٠٠٠ الخ وهذا أمر ينفرد به المصريون دون سواهم من المسلمين ٠ ولقد عابه علينا بشكل حاد الامام القرطبى فى تفسيره طبعة مركز تحقيق التراث ص ١٦ ، ١٧ : " قلت وهذا الخلاف انما هو مالم يفهم معنى القرآن بترديد الأصوات وكثرة الترجيعات فان زاد الأمر على ذلك حتى لايفهم معناه فذلك حرام باتفاق ، كما يفعل القراء بالديار المصرية الذين يقرأون امام الملوك والجنائز ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز ٠ ضل سعيهم وخاب أملهم ٠٠٠٠٠٠"

ونستطيع أن نرصد ثورة برمهات/ مارس ١٩١٩ ، المجيدة ، على الصعيد المعرفى باعتبارها أول شرخ يضرب بنية الثقافة السائدة فى مصر خلال العصر الحديث ٠ وماكان لهذا الشرخ أن يحدث لولا انخراط من نسميهم بالأميين المصريين فى غمارها ، ولقد كانوا دائما هناك يؤثرون الى هذا الحد أو ذاك فى متعلميهم ، الى أن اندفعوا تلك الاندفاعة الهائلة خلال الثورة ، فاعادوا الى ذلك الحد ، الاتصال بين المصريين المحدثين والمصريين القدماء ٠ وليس غريبا أن يلتقط المثال العظيم محمود مختار الأزميل الذى سقط من أيدى أجداده ، وأن يلتقط الموسيقار العظيم سيد درويش الألحان الشعبية التى تخمرت فى ترانيم

المعابد المصرية القديمة مثلما تخمرت الألحان الكنسية ، ولاأستطيع أن أقفز الى نتيجة محددة استنادا الى أن الفنان المجيد غنى لأول مرة في تاريخ الغناء المصرى الحديث ، فيما نظن ، للشمس في " طلعت يامحلا نورها : شمس الشموسة " عوضا عن القمر • لكننى لاأستطيع أيضا أن أمر بالأمر دون اكتراث. وليس غريبا ان يبرز طه حسين ، قمة ما أبدعه العقل المصرى في العصر الحديث ، تحت تأثير واضح لذلك الشرخ أي تحت تأثير ثقافة المصريين الأميين قبل المتعلمين منهم • ولنا أن نلم بتأثير مايسميه المتعلمون بالعامية المصرية على لغة طه حسين التى اتسمت بالبساطة والوضوح الى جانب الروعة والعمق اذا ما رجعنا الى كتاب صغير مدهش ألفه " البشير بن سلامه " التونسى الجنسية بعنوان " التطور الايقاعى للغة العربية الفصحى " فضلا عن تشرب المفكر الكبير لروح الصلابة والشموخ التى يسخر منها في نكاتهم المبتذلة المتعلمون المصريون من ابناء الحضر الذين يضمون في صفوفهم الأولى سقط الغزاة الأجانب الذين لايزالون ينعون على المصريين أنهم فلاحون •

ولقد لاحظ بحق وصدق د• فرح فودة في مجلة " فكر" عدد ٧ ص ٢٥ هذه الملاحظة الذكية : " يجب أن نعترف جميعا وبصورة واضحة ومعلنة بأن في مصر قدر من التعصب الدينى وأن هذا القدر موجود لكنه محدود وأن له من الخصائص مايتناقض مع المنطق فهو يزداد مع ارتفاع المستوى التعليمى فيتواجد مثلا في بعض الأقسام في الجامعات ويقل كثيرا في القرى أو المدن الصغيرة" •

وغنى عن الذكر أن التعصب نوع من الانحطاط العقلى والخلقى في آن واحد ، بمعنى أنه لايعدو كونه تكلسا للعقل الحر وضمورا للضمير الحى ، وهو بذلك ألصق بالبداوة منه بالحضارة •

٧- انقسم المتعلمون المصريون بشكل يكاد أن يكون حاسما ازاء موضـــوع اللغويات الذى نستمد أقوى الأدلة وأغناها فى هذا الكتاب ، الى قسميـــن كبيرين ، الأول هم الأثريون الذين يدرسون لغة مصرية قديمة ميتة أو بائدة شاءوا أن يشطروها سيرا على نهج جمهرة المستشرقين الى لغات مابيـــــن هيروغليفية وديموطيقية وقبطية أحيانا وأحيانا أخرى الى خطوط يضيفون اليهـا الهيراطيقية اوالكرسيفية ، القسم الثانى هم اللغويون الذى يقفون عند حـدود اللغة العربية الوسيطة المشهورة بالفصحى ويعتقدون اعتقادا أرسخ من الجبال الأوتاد أن اللغة المصرية الحديثة المسماة بالعامية المصرية ليست سوى لهجة من لهجات تلك اللغة السامية الوافدة ، وبذلك يفترض هوءلاء واولئـــك - ولو أنهم مصريون - أن العرب عندما دخلوا وواصلوا دخولهم أرض مصر لـــم يصادفوا سوى شقة مفروشة غير مأهولة بالسكان ، ولم يجـدوا شعبــــا ولا حضارة ولا لغة ولا تراثا ولا أديانا ولا عقائد سامية ولا الها للغيـب يدعى " آمين " وأن المصريين القدماء قد بادوا واندثروا دون ان يخلفـوا وراءهم أثرا أى أثر مثلما يحدث فى الكوارث الطبيعية المفاجئة كالـــزلازل والبراكين . حقا أشار أثريون الى استمرار بعض أسماء المدن مثل "أسوان" و"أسيوط " و " منوف " ... الخ وبعض أسماء الأشخاص مثل بشنـــدى وشنودة وبشاى فيما ينزلون للغويين على تسميته بالعامية المصرية بالاضافـة الى بعض التعبيرات المتناثرة مثل يللا برا ، وحوى ياوحوى ... الـخ ، وأشار لغويون الى وجود طبقات تحتية Substrata تعمل عملها فـى احداث " اختلافات بين التعبيرات العربية التى تختلف مكانيا " على حـد تعبير د. عبد الرحمن أيوب فى كتابه " العربية ولهجاتها " الطبعة الاولى سنة ١٩٦٨ ص ٢٠ . ولكن تخصص الأثريين هوءلاء أقصد جهلهـــــم باللغويات كعلم انسانى راقى أو راق وأكاد اقول أرقى العلوم الانسانيـــة قاطبة حال دون ان يروا ما وراء حدود تخصصاتهم ، وبالمثل حال تخصـص اللغويين أولئك أقصد جهلهم باللغات المصرية القديمة دون ان يمدوا انظارهم وراء تخوم تخصصاتهم ..

واذا كان د. عبدالعزيز صالح صاحب كتاب " حضارة مصر القديمـة وآثارها " يقول فى الجزء الاول ص ٣٢ : " وغلبت اللغة العربية باعتبارهـا

لغة القرآن الكريم المصرية القديمة ولكنها لم تجبها تماما وظلت بقية من مفردات لغتنا القديمة قائمة حية فى مجتمعنا المعاصر تصل أهلها بماضيهم وتجرى على ألسنتهم فى اسماء قراهم ومدنهم وأسماء شهورهم الزراعية وتتخلل أحاديثهم فى شئون حياتهم اليومية " ٠

واذا كان د٠ لويس عوض وهو متعلم كبير واسع المعارف غزير المعلومات يقول فى كتابه المحظور " مقدمة فى فقه اللغة العربية ص٢٧ : فالمصريون وعامة سكان شمال افريقيا على سبيل المثال ينتمون سلاليا الى عنصر غير عربى ٠ ومع ذلك قبلوا اللغة العربية حين قبلوا الاسلام ، بل أن أقباط مصر الذين لم يقبلوا ثقافة الاسلام قبلوا اللغة العربية لأنها غدت لغة مصر القومية " ٠

واذا كان الأب قنواتى يقول فى دراسة قدمها الى معهد الدومينيكان للدراسات الشرقية Institute Dominician d'etudes Orientales بالقاهرة بعنوان " عوامل ومظاهر التعريب والأسلمة لكل من مصر وسوريا فى العصور الوسيطة " ص ٣٧ ما ترجمته :" ان تأثير اللغة القبطية على اللغة العربية ضعيف للغاية " وينقل عن " ولسون بشاى " وهو أستاذ كبير متخصص فى اللغة القبطية ان هناك مائة كلمة وتسع كلمات وبتحديد اكثر ١٠٩ مادة لغوية على المستوى المعجمى فحسب ، يمكن أن نطمئن الى اعتبارها مستعارة من اللغة القبطية الى اللغة العربية المصرية ٠

اذا كان الأمر كذلك فان المرء لايستطيع الا أن يقول أنه أمام ارض بكر لم تجرحها عين ولم يخدشها تأمل دو بال من قبل ٠ وليسمح لنا القارىء الكريم أن نضع فرضياتنا على شكل تساؤلات بسيطة :

— ماهى الآليات التى سادت خلالها — كما يبدو لسائر المتعلمين المصريين وخصوصا لغوييهم وأثريوهم — لغة الغزاة الأسيويين الغربيين ، أى اللغة العربية الوسيطة الشهيرة بالفصحى على لغة السكان المحليين أى اللغة المصرية فى مرحلتها القبطيه ؟

ـ ماهو السر فى أننا نقول على سبيل المثال لا الحصر ، فيما نسميه باللغة المصرية الحديثة : أقعد همسة ولانقول أمشى همسة او كل همسة أو غمّض همسة ؟ وفى أننا نقول جبنة ـ حلوم ؟ وفى أننا نقول " يا ابن التوى " وفى أن النساء المصرية أو " المصريات " تغنى أو " يغنيين " " أونى اونى ياطحون الرحاية " وفى اننا نقول " بنها العسل " و"بنها" هو العسل ؟ أتكون اللغتان المصرية ـ الحامية والعربية ـ السامية قد بلغتا فى وقت ما مرحلة من التوازن المرهف فيما بينهما حتى اصبح المصرى بالمعنى الثقافى لا العرقى للفظ ، يقول الكلمة بلغة ومرادفها باللغة الاخرى والعبارة بلغة ومرادفها باللغة الاخرى ، ونصف الجملة بلغة ونصفها الآخر باللغة الأخرى ؟ خاصة اذا عرفنا ولايجدر بنا ونحن مصريون ألا نعرف أن " اقعد " العربية / السامية تعنى كفعل أمر باللغة المصرية القديمة فى مرحلتها القبطية ⲉⲥⲙⲓϩ التى ننقشها بالحروف العربية / النبطية الأصل " همسا " وأن جبنة هى ⲙⲟⲗⲁϩ وأن ـ ابن التوى ، تعنى وتساوى " ابن الركوب " لأن كلمة ⲧⲟⲟⲩⲉ أو " توى " تعنى مركوب بمعنى حذاء . ونستطيع من ثم أن نرجح ان الاولى أقدم من الثانية. وهل تستطيع حقيقة أن قرية " العليقات " فى النوبة القديمة، والواقعة على الحدود بين القبائل العربية الرحالة وبين النوبيين المستقرين يقولون حتى الآن او حتى وقت قريب نسبيا : سوق العنزة/ تير فيكاويجا أى يقولون العبارة وترجمتها فى نفس الوقت خشية من المتحدث أن يكون المخاطب من هؤلاء او من أولئك اى ممن يجهلون هذه اللغة او تلك... هل تستطيع هذه الحقيقة أن تساعدنا ولو قليلا فى استجلاء ماحدث على نطاق أوسع فى الوادى الكبير ؟

ـ ماهو السر فى أننا ننفى الاثبات فى اللغة المصرية الحديثة على نفس المنوال الذى كانت اللغة المصرية القديمة فى مرحلتها القبطية تنفى اثباتها خلاله أى خلال نفس البنية Structure وليس على المنوال العربى أو خلال البنية العربية ـ السامية :

٥	٤	٣	٢	١
ش	هو	عرف	أ	ما

1	2	3	4	5
ⲛ̀	ⲧ	ⲥⲟⲩⲱⲛ	ϥ·	ⲁⲛ

وليتحامل على نفسه قارئنا الكريم ويتخطى ذلك اللبس اليسير الناجم عن كتابة العربية من اليمين الى اليسار بينما القبطية تجرى من اليسار الى اليمين ويستنتج معنا أن الجملة القبطية توازى تماما الجملة المصرية الحديثة ، كل مورفيم ازاء مورفيم آخر . وهاتان " اللغتان " تختلفان معا عن بنية النفى فى اللغت العربية التى تجرى على هذا النحو :

٤	٣	٢	١
ه	عرف	أ	لاأوما

— ماهو السر فى أن اللغة المصرية الحديثة تثبت العدد ولا تغيره بتغير المعدود ، كما تفعل اللغات السامية وفقا لما يسمى بالتوافق الضدى Chiastic concordance وليتأمل القارئ الكريم هذا الجدول :

حاميـــــــــة			ساميـــــــــة		
اللغـــة	عـــدد	معـــدود	اللغـــة	عـــدد	معـــدود
مصرية	تلات تلات	بنـــات صبيان	عربية	ثلاث ثلاثة	بنـــات صبيـــان
قبطية	ϣⲟⲙⲧ ϣⲟⲙⲧ	ⲛ̀ϣⲡⲟ ⲛ̀ⲁⲗⲟⲩ	عبرية	šaloš šaloša	banoti Yeladim

ولنسأل سؤالنا على نحو آخر : لماذا تتفق المصرية الحديثة مـــع المصرية القبطية بل ومع النوبية buru tusku اى ثلاث بنات و ro : d tusku أى تلات صبيان ، أى لماذا تتفـق اللغات الحامية كى تختلف فى هذه النقطة مع اللغات السامية ، ونقــــول خشية الزلل مع هاتين اللغتين الساميتين الشقيقتين على الأقل ؟

أيكون الأب اليسوعى الألمانى كيرشر هو أول من قال فى اوائل القرن السابع عشر لميلاد المسيح بأن اللغة القبطية هى نفس اللغة المصرية القديمة مكتوبة بحروف يونانية ويكون الحر الفقير هو أول من يفترض أن اللغة المصريه الحديثة هى مرحلة من مراحل اللغة المصرية القديمة ، وهذا هو السر فى اطلاقنا عليها هذه التسمية بالذات دون سائر التسميات السائدة؟ .

ولن نمضى فى هذاالسبيل أبعد من هذا الشوط ، فدورنا لايتعدى دور القابلة أما الجنين أقصد اللغة المصرية الحديثة فلقد حملته مصـــــر ، أخصب الأرحام وأطهرها ، قبل حقب طويلة، وأصبح اى ذلك الجنين قـادرا على أن يتنفس الهواء برئتيه المستقلتين عن أمه والحاملتين لجوهر خصائصهـا فى آن واحد .

وفى سائر الأحوال هذا مبحث بكر فى نطاق مايسمى باللغويـــــات التاريخية Diachronic Linguistics نتركـه مفتوحا ونمضى الى بحث الأمر فى نطاق اللغويات الوصفية Synchronic Lgcs وفقا للتقسيم الفذ الذى أدخله العالم السويسرى الشهير دوسوسير De Saussure على اللغويات فى كتابه الوحيـــــــــد " Cours " .

٨ـ صادفت فى الآونة الأخيرة مقالين حول العلاقة بين مايسمى بالفصحى ومايسمى بالعامية • ظهر المقال الأول فى صحيفة " الأخبار " المصرية اليومية يوم ١٩٨٥/٨/٢٩ ، والمقال الآخر فى مجلة " المورد "العراقية الفصلية المجلد الرابع عشر ـ العدد الثانى • كتب المقال الأول الذى حمل اسم " لغة النور ولغة الظلام " د• عاطف العراقى أستاذ الفلسفة بكلية الآداب • جامعة القاهرة • وكتب المقال الآخر الذى حمل عنوان " ازدواجية اللغة " : نظرة فى حاضر العربية وتطلع الى مستقبلها فى ضوء الدراسات اللغوية " د• محمد راجى الزغلول الأستاذ بجامعة اليرموك ـ اربد ـ الأردن • لم يرجع صاحب المقال الأول الى أى مرجع من مراجع الدرجة الأولى فى اللغويات ، سواء فى اللغة العربية أو فى اى لغة أخرى ، اى لم يشأ أن يقف على آخر ماقيل فى موضوع ينوى تناوله والخوض فيه، ورجع صاحب المقال الآخر الى مراجع من ذلك النوع ووقف على آخر ماقيل فى الموضوع ، لكن المحير حقا أنهما انتهيا الى نتائج متشابهة وأكاد اقول نتيجة واحدة ، عبر عنها الأستاذ الأول غير المتخصص بهذه العبارة :

" أقول من جانبى عن اعتقادى ويقينى أن لغتنا الفصحى انما هى لغة النور ، لغة الانفتاح . لغة المستقبل • أما السخرية منها واللجوء الى تلك اللغة التى حشرت حشرا اى لغتنا العامية فان هذا بعينه هو طريق الظلام " •

وأفصح عنها الاستاذ الآخر ، المتخصص فى هذه العبارة :

" أستطيع القول بكل الثقة أن الدعوة الى العامية الآن لاتقابل بأكثر من الاستهزاء فى الوسط الثقافى العربى • ولا اظن أن هناك عربيا يمتلك شيئا من الولاء للعروبة والاسلام أو كليهما يتفوه بتلك الدعوة . وذلك لخطرها على الأمة العربية ووحدتها ووحدة تراثها واستمرارية تأثير هذا التراث •••• الخ •

ولعل مكمن الحيرة ليس فى هذه النتيجة بحد ذاتها ، فذلك هو المستوى الثقافى العام فى منطقتنا السعيدة ، لكن فى تلك الصياغة القاطعة

الجازمة التى تفارق لغة العلماء التى تنطوى باستمرار على قدر من التشكك أى التعقل بل وتخاصم لغة الحكماء أنفسهم التى تتحرى بصفة دائمة بعضا من التروى أى التحوط والحذر خشية الزلل .

يضيف د. عاطف العراقى :

" غير مجد فى يقينى واعتقادى أن نتصور أن الحل فى اللجوء الى مايسمى باللغة العامية . هل العامية تعد ياقوم لغة ؟ أى قواعد نجدها لتلك اللغة ؟ هل سمعتم عن لغة بلاقواعد ؟ أليس من المؤسف والمخجل أيضا أن نتباهى بتلك الحرثومة أو الزائدة الدودية والتى نطلق عليها ظلما وعدوانا لغة عامية . اننى أقطع بأن العامية هى لغة الظلام ، لغة الركود ، لغة الشوارع الخلفية ..." .

ويبدو لى فى ضوء السياق أن الأسئلة التى طرحها د. عاطف العراقى فى صدر الفقرة أسئلة بلاغية لا يقصد من ورائها الاستفهام وانتظار الجواب ، بل يبتغى منها التأكيد على أن العامية ليست لغة وانها بلا قواعد . ولكنه يقطع فى نهاية الفقرة نفسها بأن " العامية هى لغة الظلام" ألا ينطوى هذا القول على تناقض ذاتى كان أحرى بأستاذ الفلسفة أن يحرص على ألا يقع فيه ، اذ أنى له ان يقرر أن شيئا ما ليس (س) ثم يقرر بعد قليل انه (س) .

على أى حال لأخطو عائدا داخل حدود الموضوع المطروح . هل مايسمى باللغة العامية ليس لغة لأنها بلا قواعد ؟ اذن كيف يتفاهم المصريون ، ليس فى الأسواق والشوارع الخلفية فحسب ، بل وفى دور العلم بدءا من المدرسة الابتدائى حتى الجامعة مرورا بالدروس الدينية التى يحتفى بها التليفزيون المصرى الملقب بالتليفزيون العربى لشيخ كالشيخ متولى الشعراوى ، مالم يكن هذا التفاهم بتلك اللغة التى تسمى بالعامية ؟ واذا لم تكن تلك بلغة فماذا تكون ؟ . واذا كان المصريون يتفاهمون بلغات أدنى من لغتهم المنطوقة مثل ايماءات الوجه واشارات اليد دون أن يخطئوا فى " أجروميتها " أو يخلطوا بين عضة الشفة السفلى وغمزة زاوية الفم وهزة قبضة اليد اليمنى عندما نقبض اليسرى على معصمها أو هزة اليد

المفردة مع انعقاد سبابتها على ابهامها فكيف نسوغ لأنفسنا أن ننكر على لغتهم " العامية " أن تكون لغة ذات قواعد ! لقد كان الأستاذ الآخر أشد حصافة وأقل شططا عندما قال في هذا الصدد :

" لاشك ان العامية تميل الى التبسيط وخاصة فى القواعد اذ على سبيل المثال تختفى صيغة المثنى تقريبا وتنقص الضمائر ، وتختفى معظم أوزان الجمع وصيغ الأفعال وتختفى حركات الاعراب " .

ولكن هذا الأستاذ يستوى مع ذلك مع الأستاذ الأول اذ يقرر بعد ذلك مباشرة :

" ولكن هذا التبسيط هو ولاشك على حساب القدرة على التعبير ويتناسب طرديا مع تضييق الآفاق لاتوسيعها ، كذلك فان العامية قاصرة على أن تفي بالتعبير عن الأمور الثقافية والفكرية و الفلسفية ، وعلى المتكلم فى هذه المواضيع أن يعود الى الفصحى .. " وبذلك يهدر الأستاذ الآخر ملاحظاته الذكية السابقة في سبيل هذه التعميمات الفضفاضة ، وتلك الأحكام غير الواقعية . فى سائر الأحوال تقتضى لغة العلم أن ينحى الباحث ، ما استطاع الى ذلك سبيلا ، كافة الأحكام القيمية التى ترسخها العواطف الدينية والقومية فى اطارنا الثقافى السائد ، ويمضى الى وصف الظاهرة اللغوية وصفا موضوعيا كي يراها بادىء ذى بدء كما هى عليه . وهذه خطوة يتعذر عليه ، دونها أن يكتشف حقيقتها أو يتوصل الى القوانين الذاتية التى تحكم صيرورتها قبل أن يحكم أى حكم سواء بالسلب أو بالايجاب على الظاهرة أو يقترح اقتراحا ذا قيمة ، وبعبارة أخرى ذا اثر فعال سواء فى المدى البعيد أو القصير على هذه الصيرورة . فالكون الذى نعيش داخله ونشكل جزءا منه متغير بطبيعته ، وكافة ظواهره الطبيعية والانسانية خاضعة أيضا للتغير سواء تحسرنا على ذلك أو سعدنا له . وبناء عليه فاللغة بصفتها ظاهرة ، خاضعة أيضا لهذا القانون الشامل الذى ينتظم الكون بأسره . ولطالما تردد فى كتابات عديدة باللغة العربية المسماة بالفصحى أن اللغة كائن حى . ولكن الفجوة تظل باستمرار فاغرة شدقيها بين الواقع والمجاز ، اذ تستمر طيّ الغموض تلك الصفة أو تلك الصفات التى تجمع بين هذه وتلك على وجه التحديد . ويقرر كثيرون هذا القول

فى بداية حديثهم لكنهم سرعان مايلحقونه بما يفيد أن اللغة ليست بحال من الاحوال كائنا ولاحيا ، بل هى ، على النقيض من ذلك شئ مقدس تضمه الكتب القديمة وعلى العرب الذين يدبون فى بلاد العرب ، ولو أنهم عرب كملً ، ان يتقنوه حتى تقبل اوراق عروبتهم . وكل تغير يطرأ على ذلك ، الشيئ المقدس ، لايكون سوى انحراف يلجأ اليه العامة من العرب بغية التبسيط المخل ... الى آخر مثل هذا المنطق .

ينبغى اذن على الباحث أن يرفض كافة الأحكام القيمية التى تغلف الظاهرة اللغوية فى مصر وتضبب معالمها الرئيسية والثانوية معا. فالقول بأن اللغة العربية الوسيطة نسبة الى العصور الوسيطة لغة فصحى حكم قيمى يفتقر الى حجية العلم وان استند الى انثيال العواطف الدينية أو القومية لدى العرب أو هما معا . ومن جانب آخر يعد وصف اللغة المصرية الحديثة بانها لغة عامية أو لغة العوام حكما قيميا يفتقر بالمثل الى حجية العلم . دع عنك أنه يعكس استعلاء طبقيا يصير ممجوجا بصورة متزايدة فى العصور الحديثة التى تسعى الى استعادة روح المساواة العشائرية القديمة خلال شكل سياسى محدد هو الديمقراطية أى حكم الشعب .

ويذهب ظننا الى أن كافة الذين أتصلوا من قريب أو بعيد بدراسة اللغويات كعلم له منهجه وموضوعه وقوانينه الخاصة يلتقون عند وصف " العربية الوسيطة " على حد التعبير الذى نقترحه بأنها لغة وبأن " المصرية الحديثة " على حد تعبيرنا أيضا لهجة . وانطلاقا من هذا المستوى – الذى لانرضاه بطبيعة الحال – سوف نمضى الى فحص فرضيتنا . وبادئ ذى بدء نطرح هذا السؤال :

– ماهى اللغة ؟

تقول " كابرول ريد " فى كتابها لهجات الانجليزية الأمريكية Dialects of American English « ان اللغة عبارة عن نسق غير قابل للنقاش بصفة خالصة من الرموز الصوتية يستطيع البشر عن طريقه أن يتفاعلوا بعضهم مع البعض الآخر " . ولعل هذا هو التعريف الأقل اثارة للجدل بين معظم ما قدمه الذين تصدوا للأمر .

...

ولكنه يثير اشكالا خاصا ، مع ذلك ، حول طبيعة العلاقة بين ذلك النسق من حيث الجوهر وبين تلك الرموز الصوتية ، وبعبارة أخرى ، بين تلك المبادىء البالغة التجريد والمترابطة فى نظام دقيق ، وبين تجلياتها فى اصوات انسانية منطوقة ـ مسموعة محددة •

يتميز الطفل الانسانى بين سائر أطفال الأجناس الأخرى ، بما فى ذلك القردة العليا التى تتمتع بدرجة ملحوظة ، من الذكاء ، بأن عمليتى التعلم والتكلم لديه عمليتان ابداعيتان الى جانب كونهما اتباعيتين • فعندما يتعرض الطفل الانسانى للغته القومية ويتقنها مع بلوغة السادسة من عمره على وجه التقريب . لايكون قد أتقن تقليد أبويه وذويه فحسب بل واستوعب " نسقا لغويا " كذلك وتركه يترسب فى الطبقات السفلى من وعيه كى لا أقول لا وعيه . وأصبح قادرا على استعماله بشكل خلاق للتعبير عن رغباته وافكاره وما اليها حتى يصبح هذا النسق أشبه بحفظه لتوازنه على الدراجة الثنائية العجل ، أى قادرا على انتاجه بل وتطويره بصفة منتظمة دون جهد واع خلال أصوات محددة •

ثم نمضى الى طرح هذا السؤال :

ـ ماهى اللهجة ؟

تقول " كارول ريد " أيضا " اللغات المختلفة ، على نحو محدد ، ليست قابلة للفهم المتبادل ، أما اللهجات المختلفة لنفس اللغة فقابلة لمثل هذا الفهم المتبادل " •

وهذا قول علمى ، لكنه لايحل الاشكال المطروح • وهو التفريق ، بشكل حاسم بين اللغة واللهجة • ونرانا أميل الى القول بأن الاختلاف يكون محدودا بين لغتين تنتميان الى عائلة لغوية واحدة أو فرع واحد لهذه العائلة مثل اللغتين العربية والعبرية حيث تنتميان كلتاهما الى الفرع السامى من العائلة اللغوية المعروفة باسم الحامية ـ السامية بسط ويضيق هذا الاختلاف اكثر واكثر عندما تنتمى اللغتان الى فريع واحد داخل نفس الفرع للعائلة اللغوية الواحدة مثلما يحدث بين الاسبانية والايطالية

داخل الفريع اللاتينى أو الرومانى من العائلة الهندية ـ الأوروبية . وللشاعـــر الايطالى الشهير جوزيف توسيانى تجربة شيقة فى هذا الصدد اذ كتب قصيـدة باسم " مجد اللحظة " •

la gloria del momento " . يستطيع المـرء أن يقرأها مرة بالايطالية ومرة بالأسبانية دون أن يضطر الا الى تغيير نطـق بعض الحروف ، ولكن المعنى يظل فى هذه مثلما هو فى تلك" الأبنية اللغوية فى حالة التضاد " للغوى روبرتو دى بيترو .لكن ـ" كارول ريد " لم تكن غافلة تماما عن هذا الأمر • اذ تقول فى نفس كتابها أننا نستطيع أن نقـول أن الانجليزية والألمانية والهولندية لهجات لالغات مادامت قد اشتقت جميعهـا من أصل مشترك واحد هو الجرمانية القديمة ونفس الأمر يصدق أيضا علـــى الايطالية والفرنسية والاسبانية بالنسبة لأصلها المشترك ، وهو اللاتينيــة • ويذهب رأينا ، والحالة هذه . الى أن الأمر ينطوى على تداخل حــــدود اللغة واللهجة وهو ما ادى باللغويين المحدثين ، من مختلف مــــدارس اللغويات ، الى أن يوءكدوا أنه لايوجد شخصان اثنان يتحدثان ـ تماما ـ نفس اللغة ، أى ينتجان نفس النسق اللغوى بصورة اتباعية محضـــة دون تغيير مهما بدا ضئيلا • ولعل هذا هو السر فى اننا نعرف اصدقائنا علـى الخط التليفونى قبل ان ينطقوا بأسمائهم • فاللغة كالبصمة مشتركة بين سائر البشر ومتفردة فى نفس الوقت غاية التفرد • ويتفق اللغويون على ان دوائـر الفهم المتبادل تتداخل . تتقارب وتتباعد ، بدءا من الدائرة الأضيق وهـى اللغوة " Idiolect " أى لغة الفرد عبر اللهجة أى لغـنـة الجماعة الانسانية المحيطة فى اطار اللغة المجتمعية • ولكنهم يختلفـــون طويلا بشأن حدود هذه الدوائر • وما اذا كانت قائمة على الاختلافـــات العرقية أو المهنية أو الجغرافية أو السياسية أو التاريخية • علـــى أن الاختلاف الأخير " التاريخى " يحظى باهتمام بالغ ، فتلك الدوائر قـــد تختلف للأسباب السابقة لكنها تختلف بالتأكيد ، أى تتغير ، خـــلال الاستعمال ، ويترك التباعد الزمنى بين تلك الدوائر اختلافا أشد بـــروزا ووضوحا من سائر التباعدات الأخرى • وعندئذ يكون ضروريا أن تدخل كلمة " التغير " فى القاموس اللغوى والعقلى للباحثين اللغويين فى منطقتنا ، بمعنى ألا يكتفى هوءلاء الباحثون بمنح كلمة " التغير " اعترافا شفاهيـا

بينما يظل اعترافهم الحقيقى وولاءهم العميق . على نحو ماهو قائم للثبات أى للقداسة . وعندئذ يدركون وندرك معهم أن اللغة العربية الوسيطة تقف فى طرف وتقف سائر اللهجات المصرية والشامية والعراقية ... فى طرف آخر . وبعبارة أخرى تغدو مايسمونه بالفصحى ليس سوى مرحلة من مراحل هذا التغير ، وأن مايرمونه بالعامية ليس سوى مرحلة أخرى ، أرقى .

وللدكتور أنيس فريحة أستاذ اللغات السامية بجامعة بيروت أفضال عديدة ، أحدها ، دون شك ، هو التفريق بين البساطة والتفاهة ، فباحثونا — لافضت افواهم — يرون فى بساطة اللهجة المصرية أو مانسميه بـ " اللغة المصرية الحديثة " تفاهة يقع فيها العامة ، ومن ثم ينبغى على الخاصة وخاصة الخاصة أن ينأوا بأنفسهم عنها قدر الامكان . لكن الرجل أوضح منذ أواسط الستينات ، وخلال محاضراته التى ألقاها فى معهد الدراسات التابع للجامعة العربية ، أن اللغة وسيلة ، والوسائل لاتتفاضل الا على أساس حظها من البساطة والسهولة فى تحقيق الغرض المنشود ، وهو فى حالة اللغة ، التفاهم . وليس لدى على هذا الحديث العلمى الجاد أى تحفظ ، لكننى أود فحسب أن أضيف أن البساطة تتعلق فى هذا المجال بالبنية السطحية Surface Structure دون البنية العميقة للغة Deep Structure . نمضى الآن الى فحص العلاقة بين مانسميه باللغة العربية الوسيطة المسماة بالفصحى واللغة المصرية الحديثة حسب اقتراحنا خلال ثلاثة مجالات :

الأول : النحويات Syntax أى ذلك العلم الذى يدرس أكبر وحدة لغوية ذات معنى أو مفيدة حسب تعبير اللغويين العرب وهى الجملة وكيفية بنائها كلها .

الثانى: الصرفيات Morphology أى ذلك العلم الذى يدرس مايسمى بالكلمة وكيفية بنائها مورفيميا .

الثالث : الصوتيات Phonology . الذى يدرس الوحدات الصوتية فى علاقاتها مع الوحدات المورفيمية . والمورفيم قبل ان ننسى تماما هو أصغر وحدة لغوية ذات معنى أو بتحديد أكثر ذات وظيفة . مثال : "الألف والتاء" الذى يدل كمورفيم على جمع المؤنث السالم.

أ ـ النحويات :

تنتمى اللغة العربية الوسيطة " الفصحى " مثلها فى ذلك مثل الانجليزية القديمة " الأنجلو ساكسونية " التى كتبت فيها ملحمة " بيوولف " الشهيرة واللاتينية التى حملت ترجمة العهدين القديم والجديد الكتاب المقدس ، لدى الموسويين والمسيحيين ، الى اللغات التركيبية Synthetic أى تلك اللغات التى تحدد وظيفة الكلمة فى الجملة فاعل ، مفعول ،منادى ، مضاف ـ عن طريق ادخال تغير ما عليها ، اى على الكلمة سواء بالحذف أو بالاضافة أو أى تغير آخر .

الانجلو ساكسونية	Dohter blomen levt.
اللاتينية	Puella Rosam amat.
العربية	تحب البنت الوردة

فاذا جربنا على سبيل الدرس أن نغير موضع الكلمات فى أى من الجمل الثلاث التى تمتد طوليا امتداد الخرز فى العقد على هذا النحو :

الأنجلو ساكسونية	Blomen dohter levt.
اللاتينية	Rosam Puella amat.
العربية	الوردة تحب البنت

كانت النتيجة أن المعنى المحدد لم يطرأ عليه تغير دلالى ،فال " a " فى اللاتينية كالضمة فى العربية تشير باستمرار الى أن الكلمة فاعل .وكذلك الأمر بالنسبة لل " am " فى اللاتينية التى تشير بصفة دائمة الى أن الكلمة مفعول على غرار ماتفعل الفتحةفى العربية. وذلك بصرف النظر عن موقع الكلمة داخل الجملة ، وان لم يمنع ذلك تغير الايحاء الذى تتركه الجملة كالتأكيد وخلافه . ولكن الأمر عندئذ يغادر بنا حدود اللغويات الى حدود أخرى قد تكون مملكة البلاغيات . ويظل الجواب على هذا السؤال : هل تغير المعنى اللغوى بتغير مواضع الكلمات فى الجملة هو النفى .

لننظر بعدئذ الى مايسميه اللغويون ب " اللغات التحليلية " أى تلك التى تحدد وظيفة الكلمة فى الجملة استنادا الى موضعها فى ذلك

الامتداد الطولى للجملة أو مايسمونه تحديدا Word Order وليسمح لنا القارىء الكريم أن نضيف الفرنسية، لارتباطها بعلاقة تاريخية باللاتينية، الى الانجليزية الحديثة ومانحن بصدده من مصرية حديثة :

الفرنسية	La fille aime la rose
الانجليزية الحديثة	The girl likes the rose
المصرية الحديثة	

لنجرب سويا على سبيل الدرس تغيير موضع الكلمات في كل من هذه الجمل الثلاث على هذا النحو :

الفرنسية	la rose aime la fille
الانجليزية الحديثة	The rose likes the girl
المصرية الحديثة	[illegible] بتحب [illegible]

هل تغير المعنى دلاليا ؟

الجواب : نعم اذ اصبح الفاعل هو La rose, the rose الوردة؛في هذه الجمل الثلاث على التوالي وبالمثل أصبح المفعول هو La fille, the girl والبنت على التوالى .

لنجرب مرة أخرى تغيير موضع الكلمات على نحو آخر :

الفرنسية	Aime la rose la fille
الانجليزية الحديثة	Likes the rose the girl
المصرية الحديثة	بتحب الوردة البنت .

هل تغير المعنى دلاليا ؟

الجواب : لقد خرج جملة وتفصيلا عن اللغة المفهومة وصار على المستمع أن يعيد ذهنيا صف الكلمات كي يلتقط المعنى المراد . هل لايزال ثمة ظل من اللبس في الأمر ؟ دعنا نساوى بين جنس الفاعل وجنس المفعول كأن نقول :

Ali beats Mohammed

Ali frâppe Mohamet

على بيضرب محمد

عدل موضع الكلمات وتساءل عمن يكون عليه الحق : على أم محمد، تجد الأمر يختلف مع كل تغيير .

ولكن الا يلاحظ القارئ معنا أن اللغات التركيبية تميل عبر القرون وبتحديد أدق عبر الاستعمال الطويل الى أن تصبح تحليلية ؟ تماما مثلما أصبحت الانجليزية القديمة واللاتينية والعربية الوسيطة ، الشهيرة بالفصحى؟ هل نستطيع أن نحكم على هذا التغير بأنه تطور ؟

ينهانا اللغويون الوصفيون عن مثل هذا القول ويسوقون فى هذا الصدد ، أسبابا وجيهة ، من بينها أن مثل هذا القول ينطوى هو الآخر، على حكم قيمى . ولكن ألا يستند مثل هذا الحكم الى اساس موضوعى كامن فى احكام واقعية Jugements de fait اكثر قليلا على الأقل ، من القول بأن اللغات الثلاث الحديثة " الفرنسية والانجليزية والمصرية " لا تعدو أن تكون " انحرافات " عن اللغات الأصلية المقدسة اللاتينية والانجلو ساكسونية والعربية الوسيطة " الفصحى " ؟

واذا ماعدنا الى موضوعنا . وجدنا أن هذا التغير أو التطور هو الذى جعل من " اعراب الأسماء " Declension زائدة دودية حقا على حد تعبير د. عاطف العراقى فى سياق مغاير، بل وأدى الى قصر " الياء والنون " كمورفيم الدلالة على جمع المذكر السالم فى سائر الحالات الاعرابية من خفض ونصب ورفع . وخصوصا الحالة الأخيرة، وهو الأمر الذى أسقط مشتق المورفيم Allomorph أى الواو والنون وصار فى امكاننا أن نقول :

الموظفين بيزوغو

بدلا من :

الموظفون بزوغون

دون ان ينقص المعنى ذرة أو يلتبس شعرة.

ولعله من الطريف أن نلاحظ أن سقوط " الواو والنون " كان مدويا الى حد انعكس على اللغة العربية الوسيطة " الفصحى" ذاتها ، اذ بالغ المتفاصحون فى مقاومة جاذبية " الياء والنون " حتى وقعوا فيما يسميه

اللغويون بالمغالاة فى الصواب Hyper-correction • كتب صحفى مخضرم فى صحيفة أخبار اليوم يوم ١٩٨٥/٩/٧ ص ٨ تحت عنوان الشعار الملهم الذى مات ، هذه العبارة :

" لم يكن ثوار يوليو سياسيون متمرسون ولا كانوا علماء متخصصون ولكنهم ألهموا الهاما أن صلاح مصر يكمن داخل اطار المثلث الذى عبروا عنه بالشعار الشهير : الاتحاد والنظام والعمل " ويبدو أن الكاتب أضفى أفضلية دائمة فى مستوى اللاشعور على " الواو والنون " ، لكنها أفضلية ميكانيكية أدت الى ظهورها فى أماكن غير لائقة أى الى الخطأ بدلا من الصواب المنشود ، الصواب القديم الذى لايريم :

" لم يكن ثوار يوليو سياسيين متمرسين ولا علماء متخصصين ••• الخ " وغنى عن الذكر أننى لا أعرض لمضمون هذه العبارة بخير ولا بشر• ولكن لماذا سقطت " الواو والنون " ولم تسقط " الياء والنون" عوضا عنها ؟

هذا سؤال تكمن أجابته فى ميل لاسبيل للجدال فيه لدى سائر اللغات الانسانية الى الامالة التى تتبدى فى الألمانية فى الـ Umlaut وفى اللغات الحامية ــ السامية فى تحويل " الواو والنون " باستمرار الى ياء ونون وبتحديد أوضح ، الى اسقاط المشتق الأول للمورفيم والابقاء على المشتق الثانى • وليس هناك مثال أشد سطوعا من تحول "آمون " الى " آمين " ، وهو التحول الذى بدأ عند الاضافة من " آمون ــ حوتب" الى "آمين ــ حوتب " أى آمين ــ راضى وهو اسم علم شهير• ومن الملاحظ أن اللحظة التاريخية التى شهدت بدء سيادة لهجة قريش على سائر لهجات شمال شبه الجزيرة العربية قبيل عصر النبوة تحولت " اللذون" جمع الاسم الموصول السالم فى حالة الرفع الى " الذين " ، وان ظلت " اللذون " تتشبث بالبقاء حينا من الزمن فى لهجة طيىء قبل ان يلحقها الاندثار التام أمام " الذين " • ولعله من الملاحظ مرة اخرى ان اللغة العبرية الحديثة ، وهى لغة سامية قصرت مورفيم الجمع على" الياء والميم " مثال سفرديم • ايمونيم ••• الخ • ولما كان حرف الميم شقيق

النون فكلاهما أنفى ، جاز لنا أن نسأل هذا السؤال الذى يبدو لنـــا مشروعا من الوجهة اللغوية التاريخية : هل عرفت العبرية القديمة ــ قبل اسقاطها للاعراب " واو وفيم كمشتق لمورفيم الدلالة على الجمع ، فى حالة الرفع على غرار " الواو والنون " فى العربية الوسيطة " الفصحى " ؟

أيا كانت الاجابة فان العبرية الحديثة توازى اللغة المصرية الحديثة ومعظم اللغات الحية كالاسبانية والفرنسية والألمانية مع تحفظ يسير بالنسبة للأخيرة يتمثل فى تحويلها أداة التعريف للمذكر Der الى Den فــى حالة المفعول ، فسائر هذه اللغات صارت تحليلية تسقط اعراب الأسماء. ولعل هذا هو السبب الرئيسى فى كفاية " الشهور الستة " الشهيـــرة للمهاجر الطازج الى اسرائيل كى يتقن اللغة العبرية الحديثة ، فى الوقت الذى لايكفى فيه عمر العربى كله كى يحسن الحديث بلغته الأم أو التـــى يزعم قادته الروحيون أنها كذلك .

ب ــ الصرفيـــات :

تعرف اللغة الانجلزية الحديثة تحول مايسمى بالأفعال الجامـــدة Strong Verbs الى افعال لينة Weak Verbs والافعال الأولى هى التى تحدد صيغة الماضى استنادا الى تغير يطرأ علــى حرفها الصائت مثال Dive - Dove . والثانية هى التى تحدد هذه الصيغة استنادا الى اضافة ed ــ الى جذر الفعل مثـــال Walk - Walked وثمة ميل دعنا نصفه مع العقلانيين بانــه فطرى لدى الجنس البشرى نحو الانتظام ، اى اسباغ النظام على الفوضـــى وبناء عليه فالانجليزى الذى ينطق عفو الخاطر I Knowed بدلا من I Knew الفصحى ، قد يتعرض للاتهام من قبل المتفاصحين الانجليـز ب " هدم " اللغة الانجلزية بل والأمة الانجليزية بأسرها . ولكـــن اللغويين ، ولكونهم علماء يتريثون طويلا قبل أن يرموه بالخطأ مجرد الخطأ ، اذ ان المستقر لديهم أن المرء لايخطىء مطلقا ــ وأكرر مطلقا ــ فى لغتــه القومية . ومايبدو خطأ من المتحدث بلغتة القومية Native Speaker قياسا على لغة معيارية أو قل فصحى ،ليس سوى الصواب الآخر الذى قـــد يخبئه لنا رحم المستقبل .

مقدمة طويلة حقا . لكننا نراها ضرورية ، مع ذلك قبل الدخول فى هذا المجال فى لغتينا المصرية الحديثة والعربية الوسيطة " الفصحى" لننظر الى هذا الجدول :

صيغة	مثال	صيغة	مثال
فاعل	حائر	فعلان	حيران
افعل	أجرب	،،	جربان
فعول	كسول	،،	كسلان
فعل	بطر	،،	بطران
فعيل	ملئ	،،	مليان

ماالذى حدث ؟ وبعبارة أدق ما الذى يحدث ؟

الجواب المباشر : الفوضى تنتظم . أما اذا قال أحدهم أن صيغة " فعلان" كانت موجودة هى الأخرى فى اللغة العربية الوسيطة"الفصحى" وعلى نفس المستوى مع تلك الصيغ الأخرى المذكورة عاليه ، فان حديثه ذاك يكون فى الدين وليس فى اللغويات ، فكل ماهو جديد كان موجودا دون شك ، بشكل جنينى فى الماضى وماسيجد فى المستقبل موجود هو الآخر بنفس الشكل فى الحاضر . بيد أن الأهم هو أن اللغة المصرية الحديثة أسقطت تلك الصيغ التى تشكل وتعكس عدم الانتظام وأبقت على هذه الصيغة التى نظمت الفوضى " فعلان " ولعله من الملاحظ أن هذه الصيغة تواصل تقدمها على سائر الصيغ ، حتى ولو استحدثت مالا تعرفه اللغة العربية الوسيطة " الفصحى " مثال " حزين " التى تتحول تحت سمعنا وبصرنا " وبشكل هادئ الى " حزنان " التى ظلت تجهلها اللغة العربية طوال عمرها المديد . ولعلنا نضيف أن اللغة المصرية الحديثة تتوسع فى هذه الصيغة كى تستحدث صفات لاتعرفها اللغة العربية مثل دفيان أى ذاك الذى يشعر بالدفء و" بردان " أى ذاك الذى يشعر بالبرد و " غديان " أى ذاك الذى يشعر بالشبع والامتلاء .... الخ .

والآن لننظر مرة اخرى الى هذا الجدول :

صيغة	مثال	صيغة	مثال
فعل	كوب	فعالة	كباية
فعلة	حبة	، ،	حباية
مفعال	مبراة	، ،	براية
فعلة	حدأة		حداية
فاعلة	طائرة	، ،	طيارة

على هذا النحو يفضل الجنس البشرى .لأمر ما ، أن يقتصد فى بذل طاقته بتنظيم الفوضى ، ولأمر ما ننتمى نحن المصريين الى هذا الجنس باللغات دون سائر الأجناس الأخرى ، ولأمر ما نقتصد ، فى بذل طاقتنا مثلما يقتصد ، وسيان بدا هذا الأمر غريبا الى حد اثارة الذهول ومكروها كراهة التحريم بالنسبة للذين يرون الصواب المطلق والكمال المطلق والبهاء المطلق حكرا على الماضى أو بدا عاديا لنا نحن العاديين فان اللغة المصرية الحديثة تميل الى تنظيم الفوضى والاضطراب خلال هذه الصيغة ولسبب ما تفردها للدلالة على الآلات بصفة عامة • وليس مجهدا فى ظننا أن يتذكر القارىء الكريم سلسلة طويلة فى هذا الشأن : خلاطة ، غسالة، ثلاجة، فوالة • • • • الخ •

ولا نرانا بحاجة الى مواصلة تعداد الصيغ الشاذة غير المنتظمة التى نظمتها المصرية الحديثة ، بل ومضت لهجات عربية فى المنطقة شوطا ما فى نفس الطريق • لكننا ننتقل الى نقطة أخرى حققت المصرية الحديثة ووراءها معظم اللهجات العربية فى المنطقة كالشامية والنجدية والخليجية والليبية، قفزة هائلة وضعتها فى مقدمة كافة اللغات الحية المعروفة ونقصد بذلك اسقاطها للتصريف بشكل تام عن الاسم الموصول ، فبينما تحتفظ العربية الوسيطة " الفصحى " بست صيغ مختلفة للاسم الموصول بالاضافة الى مشتقين آخرين وهى كما يلى :ـ

الذى ـ التى ـ اللذان (اللذين) ـ اللتان (اللتين) ـ الذين ـ اللواتى مع غض الطرف عن اللائى •

وتحتفظ اللغةالانجليزية الحديثة" المعيارية " بأربع صيغ له هي:

Who - Whom - Which - That

وتحتفظ الفرنسية بأربع صيغ مع الفعل المتعدى فضلا عن مشتقاتها مع اللازم:

Le quel (auquel) - la quelle - les quels (auxquels) les quelles

ألا اننا نجد في المصرية الحديثة اسما واحدا او صيغةواحدة له وهى "اللى" وبذلك تكون هذه اللغة قد أسقطت عنه تجلياته المربكة والمعطلة الأخرى وجردته الى الدرجة القصوى .

جـ- الصوتيات :

يعد هذا المجال هو اوضح المجالات وأشدها حساسية التى يتبدى فيها التغير فى الظاهرة اللغوية . ويقول " رونالد لانجاكر فى كتابه"اللغة وبنيتها Language and its structure أن اللغات تتغير ولا تتدهور ، والا لكنا قد هجرنا الكلام منذ أمد بعيد الى القباع أى أصوات الخنازير " . واللغوى الكبير يملك الحق كل الحق فى هذا القول . فاللغات تتغير ، وأبرز مظاهر هذا التغير تتضح فى المجال الصوتى ولعله من المعروف أن سائر الشعوب التى تنطق اناعاتها باللغة العربية الوسيطة " الفصحى " تخلت عن القاف على سبيل المثال : مرة لصالح الهمزة ومرة لصالح " الجاف " الجافة أو " الكاف " ومرة ثالثة لصالح " الغين " مثلما هو الحال لدى السودانيين . ولم تبق " القاف" القديمة الا فى جيوب محدودة فى مناطق جبلية فى اليمن - هذا اذا كانت قد احتفظت بمخارجها القديمة دون تغير . ولعله د. ابراهيم انيس هو الذى أوضح أن حرف " الضاد " كما كان القرشيون ينطقونه قد اختفى تماما حتى من اللغة العربية" الفصحى " التى ينطقها من يدعون أنفسهم بالعرب فى الوقت الحاضر ، رغم ان كثيرين منهم يحلو لهم أن يصفوا هذه اللغة ذاتها بلغة الضاد !

والعرب الاقدمون أو تحديدا عرب العصور الوسيطة أنفسهم تخلصوا من الهمزة التى لاتقل كثيرا فى ثقلها عن " القاف " مرة لصالح " الواو "

مثلما حدث فى نأى ـ نوى ، ومرة لصالح الياء ذئب ـ ذيب بل وحذفوها تماما فى بعض الأحيان فى سماء ـ سما ، وان أخذ هذا التخلص فى كثير من الأحيان شكل الاضطرار الشعرى قافية أو وزنا ٠

ولكن هل هذا التغير لايحكمه قانون ؟

يذهب بنا الظن الى أن " لانجاكر " كان يرد على الذين يقولون بتدهور اللغات ، وسائر المتعلمين المصريين يرون ذلك ، لكنه ظل مقيدا بالمنهج الوصفى ولم يشأ ان يتطلع الى هذا القانون البسيط الذى يحكم التغير ، فى هذا المجال . وهو الاقتصاد فى بذل الطاقة ٠ فمثل هذا القانون هو الذى يفسر لنا تخلى المصريين المعاصرين عن الحروف الثقيلة أى تلك التى تحتاج جهدا عضليا أكبر فى انتاجها عبر الأجزاء العميقة من الجهاز الصوتى ـ

وفى ضوء هذا القانون يأتى تخلص المصرية الحديثة من الصائتين المدغمين او مايسمى بال " Diphthong " وتحويلهما ، كل على حده ، الى صائت بسيط :

موْز ـ مُوز

بيْن ـ بِين

على أن الصائتين البسيطين هذين اللذين استحدثتهما اللغة المصرية الحديثة يعدان صوتين جديدين بصفة تامة على اللغة العربية الوسيطة " الفصحى " ، بل واكاد اقول سائر اللهجات المنطوقة فى المنطقة وأخص منها الشامية التى يقول فيها الشاعر :

ياريْت

أنت وانا بالبيْت

شى بيْت ، اهلا بيْت

ممحى ورا حدود العتم والريح ٠٠٠ الخ

ويقول شاعر آخر فى نفس اللهجة :

وقف يا أسمر فى الك عندى كلام
ها البنت ياللى بيْتها " فوقْ " الطريق حملتنى
" اليوم " لعيونك سلام ... الخ

وهذه شواهد وملاحظات محدودة حقا ، لكنها تتمشى مع قانون التطور الذى يقوم على الاقتصاد فى بذل الطاقة وبمقتضاه تتجه الاصوات اللغوية عند انتاجها بصفة عامة ، الى التحرك من اعماق الجهاز الصوتى الى أطرافه . والمذيعة المصرية التى تنطق " القاهرة " على هذا النحو : " الكاهرة " . لاترتكب خطأ فاحشا ولا جرما غير مغفور ، يستدعى " الهيجان " والاستنفار اللذين يدبان وسط تلك الفيالق التى تنتدب نفسها ، من فورها ، للتصحيح والتأنيب والهزء . ومعروف أن المصريين فى سائر الأحوال ، يسمون عاصمة بلادهم " مصر " وهو نفس اسم البلاد ، وليس ثمة من يطلق عليها فى مصر اسم " القاهرة " سوى الكتب والصحف ومذيعى التليفزيون " العربى " أى " المصرى " .

ولكن لماذا اختلفت اللغة العربية الوسيطة " الفصحى " كل ذلك الاختلاف فى مصر ، عنها فى سائر أرجاء المنطقة التى تمتد من الخليج الى المحيط ؟ وبعبارة اخرى لماذا سلكت هذه اللغة تلك الصيرورة بالتحديد كى تصل الى ما أسميه باللغة المصرية الحديثة ؟

فى هذا السؤال تكمن فرضيتى . وبادئ ذى بدء اود ان اشير الى ما اراه بديهيات أولية ، وان كانت مطمورة تحت ركام التخلف الذى يتبدى بألف قناع وقناع ، القناع الأول هو مايبدو تعليما مصريا والثانى هو مايبدو اعلاما مصريا : مصر بصفة أساسية افريقية والحضارة المصرية القديمة حضارة سوداء بصفة أساسية والمصريون حاميون بصفة أساسية . حقا تطوروا وحقا تأثروا ، تطوروا بفعل العوامل الداخلية وتأثروا بالعوامل الخارجية كالهجرات البشرية والثقافية والدينية التى وفدت الى أرض " ايزيس " مرة من البحر الأبيض المتوسط ومرة عبر البحر الأحمر ومرات خلال شبه جزيرة سيناء لكنهم استمروا مصريين وماكانوا ليذوبوا بل ذوّبوا او بتعبير آخر استوعبوا ومصّروا . لماذا ؟ لسبب بسيط هو أنهم الأعظم حضارة ولم يكن هوارس

شاعر الرومان ومؤرخهم الكبير يكتب عبارة خلابة اذ كتب :
لقد أسر Capti Captivus Cepurent
المأسورون الآسرين .

بل يضع قانونا انسانيا شاملا يصدق على اليونان والرومان مثلما يصدق على سائر المتحضرين عندما يغزوهم الاقل منهم حضارة . واذا كانت مصر قد ضمت أعظم حضارة سطعت فى العالم القديم ، فان جميع الذين هاجروا اليها أو غزوها واستقروا على أرضها قد أصبحوا متمصرين ثم مصريين أقحاح وبعبارة أخرى أصبحوا — وهم الغزاة الوافدون — أسرى حضارتها وثقافتها بل ودياناتها على وجه الخصوص . ولايخالجنى كثير شك فى ان البدو الرحل الذين اتصلوا بمصر لسبب أو لآخر من عرب وعبريين قد تحولوا الى مستقرين يعيشون على الزراعة لا الرعى والحرف والصناعة لا الغزو والاغارة . فالقانون يقضى بتحول الاقل حضارة الى متحضرين وليس العكس .

واذا كان المصريون — لايزالون ، ودون سائر شعوب المنطقة — يقدسون المرأة ويسبغون على " السيدةزينب " صفات " ايزيس " الاهتهم العظمى " أم العواجز " و " الطاهرة و" رئيسة الديوان "و "الست" ويضفون على شقيقها " الحسين" صفات " اوزير " امام الشهداء المفصول الرأس فان الاسم يكون قد تبدل ولكن الروح ظلت والاحرى استمرت مصرية أصيلة . الى اين اتجه ؟ لقد تبدلت اللغة المصرية القديمة من الهيروغليفية الى الديموطيقية ثم القبطية ولكن هذه القبطية اختفت من الدواوين بل ومن الكنائس فهل اندثرت من الوجود ؟ على أننا نستخدم كلمة القبطية هنا استخداما لغويا محضا دون أى ارتباطات أو ظلال دينية . ولعلنا فى هذا الصدد نذهب الى ان الشعب الثلاث للديانة الابراهيمية وهى الموسوية والمسيحية والمحمدية نشأت فى ظل العقائد المصرية القديمة من التوحيد الى التلثيث ومن البعث والخلود الى الحساب الاخروى ومن الحج والطواف الى الختان وتدنيس الخنزير ،وفضلا عن كل ذلك لاقت فى مصر مصيرين اثنين : أما الرفض أو التمصير .

هل اندثرت من الوجود اللغة المصرية القديمة بآخر شكل معروف لها وهو القبطية ؟ هذا هو السؤال .

وفى سائر الاحوال يذهب اللغويون الى أن الانجليزية الحديثة لغة جرمانية رغم الكم الهائل من الكلمات اللاتينية ـ الاغريقية التى دخلتها مرة بشكل مباشر ابان الاحتلال الرومانى للجزيرة البريطانية ومرة بشكل غير مباشر ابان الحكم الفرنسى ـ البريتانى لها . وتقدر الموسوعة البريطانية الأمر على هذا النحو :

The vocabulary of modern English is approxi-mately half Germanic old English and Scandi-navian and half Italic or Romance (French and Latin) with copious importations from Greek in science and borrowings from many other languages.Britannica P.500 V.4.

أى :

نصف الفاظ اللغة الانجليزية الحديثة على وجه التقريب يرجع الى أصل انجليزى قديم ، المانى واسكندناوى ، والنصف الآخر يعود الى أصل ايطالى او رومانى (فرنسى ولاتينى) مع مستوردات غزيرة من اللغة الاغريقية فى مجالات العلم واستعارات من لغات عديدة أخرى " الموسوعة البريطانية ص ٥٠٠ . الجزء الخامس ، طبعة ١٩٨٩.

ومعنى ذلك كله أن اللغة بصفة أساسية بنية Structure وليست كلمات منفصلة أو تعبيرات متناثرة .

واذا كان لنا أن نعود الى حديث أستاذى الجامعة حول خطر الدعوة الى ما أسمياه بالعامية على مايسمى بالقومية العربية ومايدعى بالاسلام فاننا ما كنا لنود لأساتذة متخصصين أن يغادروا مجال تخصصهم كى يفتوا باطمئنان راسخ فيما لايفقهون فيه لاكثيرا ولا قليلا . فالقومية تولد وتترعرع وفى خط موازى تولد وتترعرع لغتها ، وليس ثمة شواهد تارخية حاسمة تخالف ذلك . واذا كان للقوميات والجماعات القومية المنتشرة فيما بين الخليج والمحيط أن تتحد يوما ما تحت ظل قومية موحدة فلسوف تنشىء

هذه القومية لغتها التى نرجح ان تكون احدى اللغات الراقية المنطوقة فى المنطقة • وليس ثمة احتمال قوى أن يعود من يسمون أنفسهم بالعرب الى التحدث باللغة العربية الفصحى التى اتخذت لهجة قريش نموذجها المقدس مهما اندمجوا او اتحدوا ، تماما مثلما يتعذر أن نتخيل ان تعود أوروبا الى التحدث باللاتينية مهما اتحد الأوربيون أو اندمجوا ، أما الخطر الذى يخشاه أستاذنا الجامعة على الشعبة الأخيرة من الديانة الابراهيمية حسب ما نرى ، فالديانات تنشأ وتستمر فى الوجود لأسباب اخرى خلاف الارتباط بلغة مقدسة ، ايا كانت • فالهندوسية لم تنقرض بانقراض السنسكريتية والمسيحية لم تتلاشى بزوال لغاتها المقدسة العديدة كاليونانية القديمة واللاتينية القديمة ، والعقائد المصرية القديمة لم تندثر باختفاء اللغة المصرية القديمة فى مرحلتها القبطية من الدواوين والكنائس •

٩ ـ أ ـ قبطى ـ مصرى

يعد المصريون ، باسمهم هذا ، واحدا من الشعوب التاريخية المعدودة التى أصبحت تعرف بالاسم الذى اطلقه عليها الأجانب ، فلقد أطلقت ، على سبيل المثال ، الشعوب والقبائل المجاورة اسم الجرمانيين والكوريين على الشعبين اللذين نعرفهما فى أقصى غرب اوروبا وأقصى شرق آسيا بهذين الاسمين • وعلى نحو مماثل أو مشابه أطلق الآسيويون الغربيون المعرفون باسم الساميين اسم " مصر " أى " الحد " فى لغاتهم على هذه الأرض السوداء أو " كيمى " فى اللغة المصرية القديمة ـ التى تتاخم بلادهم • وعلى وجه اكثر تفصيلا أطلق الأشوريون عليها اسم " مصر " والآراميون اسم " مصرين " والعبرانيون اسم " مصرايم " والعرب اسم " مصر " مرة أخرى • ومضى العبرانيون ، وسار وراءهم العرب ، فى نسج أسطورة نسبت المصريين الى من يسمى ب " مصرايم " أحد أحفاد نوح " راجع سفر التكوين ، الاصحاح العاشر • آية رقم ٦ " ومن " مصرايم " ، هكذا تمضى الأسطورة ، اشتق اسم " مصر " الذى عرفت به أرض " ايزيس " فى الكتب المقدسة للديانات الثلاث ، الموسوية والمسيحية والمحمدية ، أى فى العهد القديم والعهد الجديد والعهد الأخير على التوالى • وتقف هذه الأسطورة كأساس لأساطير عديدة لاحقة ليست اسطورة اكتساب " مصر " لاسمها من اسم الملك " مصر بن الملك سيف بن ذى يزن " الا احد تجلياتها •

لكن المصريين ، مع ذلك ، ينفردون بين سائر الشعوب التى سماها الأجانب بفقدانهم لاسم خاص يطلقونه هم على أنفسهم ، اذ نجد الجرمانيين أو الألمان لايزالون يطلقون على انفسهم اسم دويتش Deutsch وعلى بلادهم اسم دويتشلاند Deutschland ، كما نجد الكوريين يسمون بلادهم " تشوسن Zosen " التى تعنى اشتقاقها " بلاد الصباح الهادئ " وينسبون أنفسهم الى هذا الاسم على هذا النحو " تشوسن سارام Zosensaram " وبذلك يكون اسم الجرمانيين مرادفا من الناحية الدلالية لاسم " دوتيش" ، ونفس

الأمر يصدق على الكوريين و " تشوسن سارام " • وكل ما هنالــك أن الاسمين الأولين فى الحالتين هما مايطلقه الأجانب والأسمين الآخرين هما ما يطلقه السكان الأصليون على نفس المسمى • ولعل هوءلاء واولئـــــك يقفون نفس الموقف لدى اطلاق اسم الغزاة والفاتحين على مسمى واحد •

ومع ذلك ظل المصريون ، كما أسماهم الآسيويون الغربيون القدماء أو " المصاروة " كما يدعوهم الأسيويون الغربيون المحدثون يحتفظون حتى افول العصور الوسيطة باسم خاص يدل عليهم دون غيرهم وهو: الاقبـــاط. ولقد دأب الموءرخون العرب أنفسهم على ان يشيروا الى المصريين بصفتهـــم أقباطا طوال تلك العصور • وكانوا يكتبون : الاقباط المسلمون او الأسلميون والاقباط المسيحيون أو النصرانيون • ولاغرابة فى الأمر فلفظ " قبـــط " مشتق من الاسم الذى أطلقه المصريون القدماء على عاصمة بلادهم " منف " وهو " ها ــ كو ــ بتاح " أى " بيت روح الاله بتاح" ثم تحولـــت " " هاكوبتاح " هذه الى " هاكو بتاه " لنفس العوامل التى حولت"الكاف" فى " بردك " قبل عدة أجيال فحسب الى " ها " كى تصبح بـــرده " وفى وقت لاحق اطلق المصريون القدماء الاسم على بلادهم عن باب اطلاق اسم العاصمة على القطر باكمله • وهو امر لايزال شائعا فى شمال افريقيا فى العصور الحديثة ، وهو الاسم ، مرة اخرى . الذى عرفهم بـــــه اليونانيون على هذا النحو Aiguptos ، وانحدر الى سائـــر اللغات الأوروبية الحية، وان حمل خصائص هذه اللغة او تلك مـــــن Egypt الى L'Egypte الى Agypten

على أن بغيتى فى هذا الشأن ليست بحال من الاحوال استبدال لفظ المصريين بالاقباط - الحاقا للباء بالمأخوذ لا المتروك ــ بـــــل استخدامها ــ دلاليا ــ بشكل مترادف فحسب • ولعل قصر اسم "الاقباط" على المصريين المسيحيين ، على نحو ما اتفق عليه . ولأمر مـــــا ، مصريون عديدون على الضفتين المفترضتين : المسيحية والمحمدية، لعمـل ينطوى على لبس يتجلى على نحو اوضح متى صادفنا . عبارة " اللغــــة القبطية " أو " الحروف القبطية " : فليس فى حدود معرفتى لغــــة

دينية سيان كانت مسيحية أو موسوية أو محمدية أو حتى بوذية، والا تكـــون عندئذ قد غادرنا نطاق العلم الى نطاق المجاز الذى يتسع حتى للغة الصمـت ولغة العيون ولغة الآى آى . وفى سائر الأحوال " دخلت الحروف اليونانيـة القديمة " الاغريقية " على اللغة القبطية قبل ميلاد المسيح، ويحتفظ متحفا باريس ولندن بنصوص قبطية وثنية أى لغتها مصرية وحروفها يونانية وان احتفظت ببعض الحروف الديموطيقية" . " قواعد اللغة القبطية" د. جورجى صبحـى" ، و " د. صبحى يشير على وجه الترجيح هنا الى بردية جريفث Griffith التى يحتفظ بها متحف لندن .

لكن هذا اللبس يزدهر الى فوضى ضاربة الأطناب عندما يقـــرر مصريـون مسيحيون دون أدلة كافيــة أن الشعب المصرى شعب أبيض من شعوب البحر المتوسط قادم من جنوب أوروبا حاملا العهد الجديد" الانجيل " فـــــى لغته اليونانية القديمة بطبيعة الحال وفى عبارة المؤلف الخاصة " المصريـون شعب أبيض من جنس البحر الأبيض المتوسط وقد نزحوا الى وادى النيـــل واستوطنوه بالتدريج ثم اختلطوا بشعوب مختلفة..." " تاريخ الاقبـــاط، الأستاذ زكى شنودة ص ١١٠ وعندمــا يقرر مصريون محمديون دون أدلة كافيـة بنفس الدرجة أن المصريين شعب عربى سامى قادم من غرب آسيـا حامـــلا العهد الاخير اقصد " القرآن الكريم " أو باتوا وأصبحوا كذلـك ، " وآثـار الفتح العربى لمصر تعفينا بعد عما يقتضيه التقصى العلمـى من الحالـــة فى هذا الصدد . فنحن ما نكاد نبلغ القرن الثامـن (الميلادى) ونلقـــى أول مصرى كتب عن مصر بعد الفتح وهو ابن عبد الحكـم حتى نجدنا أمـام مجتمع عربـى بارز المعالم مثل مجتمعات دمشق والمدينة ومكة المعاصـــرة فأهل هذا المجتمع عرب وتفكيرهم عربى وتقاليدهم عربية. وليـس فى عروبـة من ليس بينهم من أصل عربى كابن عبد الحكم نفســه أى تكلــف أو زيــف ومصر ابن عبد الحكم ذاتها مصـر سامية عربية منذ أن كانت الخليقة وليـس فى تاريخها الطويل ما يستحق ان يذكر سوى قصص ابراهيم واسماعيل وموسى

ويوسف ومريم القبطية وايثار النبى القبط وبغض الله كفر المصريين الأولبين " .. " فى أصول المسألة المصرية ص ٦٢.٦٣ د. صبحى وحيدة " . وكأن وادى النيل بالنسبة لهؤلاء ولأولئك لم يكن سوى سهل فسيح ممتد غير مأهول بشعب عريق ، وفى أقل تقدير أعرق من غزاته جميعا سواء الذين قدموا من جنوب أوروبا أو من غرب آسيا !

ولست اتجاهل ، ولاينبغى لى ، ما يذهب اليه البعض من أن لفظ " مصر " ذاته مشتق من " ما ـ سى ـ را " التى تعنى باللغة المصرية القديمة الهيروغليفية " بيت ابناء الشمس " أو مايذهب اليه آخرون من ان اسم دويتش Deutsch منحدر من لفظ اطلقه الرومان على الذين يتحدثون اللغة العامية أى الالمانية دون اللغة الفصحى . اى اللاتينية وقت ذلك مكان ذلك وهو Theotheseus ، فهاتان المعلومتان ، مع افتراض صحتهما لاتخدشان من قريب أو من بعيد ـ مع ما يشبهما من معلومات مستفيضة اخرى ما اذهب اليه فى هذا الصدد . وهو على وجه محدد . ثمة اسم يطلقه الأجانب وثمة اسم آخر يطلقه السكان المحليون على نفس المسمى، وهو فى الحالة الأولى المصريون / الأقباط . وفى الحالة الثانية الجرمانيون / الدويتش بصرف النظر عما يسفر عنه اقتفاء أثر كل لفظ على حده الى أصوله الأولى التى ضببها ـ دعنا نعترف ـ بعد المسافات وانحلال الأساطير الى بديهيات وخصوصا لدى المتعلمين المحليين أى ضحايا الأيديولوجيات التى يسيدها الغزاة ويحرسها من بعدهم اتباعهم .

أتراني أستطيع ، بعد كل ذلك ، أن اخلص وبحذر الى ان لفظ قبطى ومشتقاته يرادف من الوجهة الدلالية لفظ " مصرى " ومشتقاته. على أى حال ، هذا مايطمئن اليه فؤادى .

ومعنى القول اننا كمصريين ـ وسواء أكنا مسيحيين او لم نكن نملك الحروف القبطية واللغة القبطية والتراث القبطى ملكية الأحفاد لتراث الأجداد .

ب ـ الهيروغليفية ، لا الفينيقية ، هى أم الابجديات فى العالم :

يرى أى ، جيه ، جيلب فى كتابه " دراسة فى الكتابة A Study of writing أن " الكتابة نسق للتواصل بين البشر عن طريق علامات مرئية تقليدية على العكس من الصور التى يرسمها الفنانون ،فهذه تعد علامات شخصية لاتقليدية " . ويتفق معه فى الأمر جمهرة الباحثين فى الموضوع . لكن هؤلاء وان اختلفوا طويلا حول الاسم الذى ينبغى اطلاقه على الأبجدية الاولى التى ظهرت فى العالم القديم وهل هو الابجدية السامية الشمالية " الفينيقية " أو أحد اشكال الكتابة المقطعية السامية الغربية " السومرية " ، الا انهم يتفقون على ان هذه وتلك انما تضرب باشكالها دون اسماء حروفها الى الكتابة المصرية القديمة وبالتحديد الهيروغليفية وهو لفظ يونانى قديم " اغريقى" يفيد " الكتابة المقدسة " أو " الكتابة الالهية " .

يقول جيمس هنرى بريستيد . حجة المصريات الكبير فى كتابه الشهير " فجر الضمير " ترجمة . سليم حسن ص ٢٩ :" تؤيد الدلائل رأى من قال أن هؤلاء المصريين الذين عاشوا فى عصر ماقبل التاريخ الذين تواريهم الجبانات هم واجدادهم كانوا أقدم مجتمع عظيم على وجه الأرض ، استطاع أن يضمن لنفسه غذاءا باستئناس الموارد البرية من نبات وحيوان ، على حين أن قهرهم للمعادن فيما بعد وتقدمهم فى اختراع أقدم نظام كتابى قد وضع فى ايديهم السيطرة على طريق التقدم الطويل نحو الحضارة " .

ويقرر سيمون بوتر ، بجلاء ، فى كتابه " لغتنا Our Language ص ٦٩ أن :

"كافة الأبجديات فى العالم تنحدر عن اصل مشترك واحد فهذه الأبجديات جميعا اشتقت من " الكتابة الصورية " التى نشأت فى مصر .

- ويشير الآن جاردنر ، عالم المصريات الكبير وصاحب " النحو المصرى The Egyptian Grammar ص ٦ الى مايلى :

. " ظل التاريخ المدون يعد فى حكم العدم حتى اكتشف المصريون قبل نهاية حقبة ما قبل الأسرات مبدأ الكتابة الصورية (وفى عبارته الخاصة Rebus or Charade) وتمثل الاتجاه الجديد فى استخدام الصور، ليس للدلالة على الأشياء فى حد ذاتها أو على أى افكار شبيهة ، بل فى الاشارة الى اشياء اخرى مختلفة كل الاختلاف ، ولا تخضع بسهولة للتمثيل الصورى أى أسماء الأشياء التى تصادف أن حملت ــ أى تلك الأسماء ــ صوتا مماثلا " .

وايضاحا للأمر أسوق هذا المثال ، حرف ⊂⊃ وهو عبارة عن صورة الفم الذى يعنى " روى " بالهيروغليفية لايمثل الفم بل يمثل حرف " الراء " الذى يتصادف أن يقع فى أسماء اشياء عديدة اخرى ، ولمزيد من الايضاح أضرب هذا المثال من الحروف العربية / النبطية الأصل . لنفترض ــ اتفاقا مع آخرين ــ أن حرف الجيم "ج" كان يعد تمثيلا فى أصله البعيد لصورة/معنى الجمل ، لكن هذا الحرف لايعود يمثل لفظ " الجمل " بل حرف الجيم الذى يقع فى اسماء اشياء عديدة أخرى .

ويعتقد " ديفيد مادلين" فى كتابه
Le debat sur les ecritures et l'hierogly-phiceaux.
" ونقلا من جانبى عن كتاب " الاستشراق " لادوارد سعيد ــ ان الحدث الذى اخترق حدود المعرفة حقا حول دراسة الهيروغليفية يتمثل فى اكتشاف شامبليون أن حروف حجر رشيد تحمل قيمة صوتية الى جانب قيمتها الدلالية . " .

وهذا وصف علمى دقيق للخطوة الجبارة التى خطاها العالم الفرنسى الشهير جان فرانسوا شامبليون ، ويتفوق بما لايقاس فى عمليته ودقته على مايدرسه المصريون المعاصرون فى كتبهم الدراسية من ان شامبليون " حل طلاسم اللغة الهيروغليفية "الا أن الباب لايزال مواربا ، بعد كل ذلك امام هذا السؤال :

هل تحمل الكتابة الهيروغليفية أبجدية ، اى علامات محددة تشير كل منها الى صوت منفرد متميز Phoneme ؟ .

واقع الأمر أن المصريين القدماء استمروا يكتبون الهيروغليفية التى وصفها الغزاة / الفاتحون القادمون من غرب آسيا فى اواسط القرن السابع الميلادى ب " لغة العصافير " لحقب طويلة تزيد على أربعة آلاف عام ، وكان منطقيا ألا تظل طيلة هذه الحقب على ماهى عليه دون تغير أو تطور ، وصادف ماهو منطقى تطابقه مع ماهو واقعى فى هذه الحالة . فلقد عرفت الكتابة الهيروغليفية أكثر انساق الكتابة بدائية وهو شكل علامة ــ معنى Ideogram او صورة- معنى Pictogram حتى أرقى هذه الأنساق جميعا وهو النسق الأبجدى أو الألفبائى ، مرورا بالشكل المقطعى Syllabry مثال علامة التى تلفظ " نب " أو التى تلفظ " نفر " وليس يهمنا فى هذا الصدد سوى الأبجدية الهيروغليفية وبعبارة ادق ما انطوت عليه الهيروغليفية من ابجدية ، أرى فى اثباتها بحروفها الأربعة والعشرين دليلا حاسما ، أليس كذلك ؟ على أن" لغة العصافير " تلك حطت نسقا أبجديا مع ذلك او الى جانب ذلك .

a ا	i y ى	' ع	w و
b ب	p ب	f ف	m م
n ن	r ر	h هـ	ḥ ح
kh خ	ẖ	s س	š ش
k ق	k ك	g ج	t ت
ḏ تـ	d د	ḏ د	L ل

وقد يجهل سائر المصريين الذين انخرطوا فى سلك التعليم فى مصر من ادنى درجاته الى اعلاها أن حرف الـ a فى النسق الابجدى اللاتينى الذى تكتب به لغات حية عديدة فى سائر أرجاء القارات الخمس المأهولة بالسكان منحدر عن حرف الـ " ألفا " اليونانى القديم ꝺ عن نظيره الفينيقى ، وهذه جميعها عن الحرف الأول " الهمـــزة" المناظر فى الهيروغليفية ويمثله التمثر المصرى المعروف باسم " الرخم" ، وهذا من باب ضرب الأمثال لا حصرها .

ولاينبغى أن نطوى هذه الفقرة دون ان ننصت الى العالـــم الالمانى الشهير فونز هومل فى " التاريخ العام " ترجمة د. فـــؤاد حسنين على ص ٦٠ :

" صار من المحقق الآن ان القرابة قوية جدا بين ابجديـــة النقوش العربية الجنوبية وبين الأبجدية الفينيقية . لكن الخلاف حـــول درجة القرابة ونوعها ، فاما ان الأبجديتين نشأتا عن ابجدية واحـــدة هى بمثابة الأم لهما ، وان هذه الابجدية الأم كانت موجودة حوالى ٢٠٠٠ ق.م، واما ان الابجدية العربية الجنوبية تفرعت عن الابجدية الكنعانية مع تغيير بسيط أو العكس هو الصحيح ، ولكن الى جانـــب هذه الاحتمالات والآراء يجب ان نذكر الظروف المحلية التى قد تزيـــد المسألة صعوبة ، فعلينا قبل كل شئ أن نسلم بوجود حلقة اتصـــال مفقودة ... وتوجد اعتبارات أخرى جديرة بالاهتمام كالعلاقة بين تلك الأبجدية السامية والأبجدية المصرية القديمة التى عرفت حوالى آربعـــة الاف عام قبل الميلاد وذلك لأنه من المستبعد ان توجد ابجدية مرتين فى العالم القديم وتكون هذه الابجدية أبجدية حروف صامتة (سواكـــن Consonants) وبها اشارة الهمزة وكل ابجدية مستقلة عن الاخرى.

واذا كان الأمر كذلك ، وصادفنا ماكتبه د. احمد هبو الســـورى الحلبى فى كتابه " الابجدية : نشأة الكتابة وأشكالها عند الشعوب "

لدى ذكر الستة عشر لوحا التى اكتشفها الاثرى فلندرز بترى فى منطقة " صرابة الخادم " بجبل سيناء، ويرجع تاريخها الى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد ٠

" ولقد اثار اكتشاف هذه الكتابة السينائية ضجة كبيرة فى أوساط الباحثين فى تاريخ الكتابة وحفزهم على التكهن بأن هذه الكتابة هى حلقة الوصل بين الكتابة التصويرية " الصورية " والكتابة الالفبائية الأبجدية " أما الكتابة التصويرية فهى الهيروغليفية فى هذه الحالة لأن المنطقة كانت تحت السيطرة المصرية وان الكتابة الألفبائية الأبجدية المقصودة فهى الفينيقية القديمة أم الكتابات الأبجدية فى العالم ٠"

ترى ماذا يملك المرء سوى الابتسام مرتين ، الأولى لعبارة " تحت السيطرة المصرية " فى الاشارة الى منطقة صرابة الخادم " بجبل سيناء ومرة لعبارة " الفينيقية أم الكتابات الأبجدية فى العالم" ٠

وليس من شيمى أن اغمط أحدا حقه ، أو أحاول ذلك، فالفينيقيون ذوو فضل كبير ، مع ذلك ، على الكتابة الأبجدية القديمة، لكن هذا الفضل يتمثل فحسب فى نبذهم ما استمر المصريون القدماء يتمسكون به من تقاليد كتابية راسخة طمست او كادت ان تطمس ملامح الأبجدية الصوتية التى توصلوا هم انفسهم اليها أى أن فضل الفينيقيين محدد فى نطاق الروح العملية التى اكتسبوها من كونهم تجارا وبحارة وجوابين للأصقاع ، وفى عبارة مجازية ، استطاع الفينيقيون وقت ذاك ان يفصلوا اللحم عن الشحم ، ورحلوا مغتنمين الأول مخلفين الثانى وراءهم ٠ وفى عبارة كل من " دوايت بولنجر " و" دونالد سيرز" فى كتابهما المشترك " مظاهر اللغة Aspects of Language " حاكى الفينيقيون لدى انحنائة منتصف الألف الثانى قبل ميلاد المسيح النسق المقطعى الأحادي الساكن للمصريين، طارحين جانبا الباقى " ولنلاحظ هذا ان المؤلفين الكريمين فضلا استخدام النسق المقطعى الأحادى الساكن دون النسق الابجدى ذى الحروف الساكنة تاركين

بذلك الباب مفتوحا أمام ما ادخله الاغريق القدماء من صوائت Vowels على هذا النسق قبل أن يسلما – على مايبدو بان مالديهما يستحق لفظ أبجدية .

وخلاصة القول اننا كمصريين نملك كافة الأبجديات التى ظهرت فى الشرق الادنى وجنوب أوروبا فى العالم القديم والوسيط والحديث سواء أكانت نبطية / عربية أو اغريقية أو لاتينية بحكم انحدار هذه الابجديات عن الأبجدية المصرية القديمة ، وقبل ذلك وبعد ذلك بحكم انتمائنا الى بنى البشر ، وهو نفس الانتماء الذى رفع الحرج ... اى حرج – عن شعوب عديدة فى سائر ارجاء المعمورة حتى يكتبوا لغاتهم بحروف أجنبية عنهم ، ونستطيع ، من ثم ، ان نطرح هذه ونتبنى تلك متى اقتنعنا بذلك ، دون عوائق من قداسات زائفة مضفاة من الخارج .

ج – فشل الترقيع :

استقرت جمهرة اللغويين على أن الحجازيين اقتبسوا ما اصبح يعرف بالحروف العربية من الحروف النبطية المشتقة بدورها من الحروف الآرامية المنحدرة من الحروف السريانية التى ترتبط بصلة وثيقة بالحروف الفينيقية التى ينتهى أصلها عند الابجدية الهيروغليفية وبتحديد اكثر الأبجدية التى حملتها الهيروغليفية ، اذ" عثر العالم الفرنسى Dussond على نقش على قبر الملك أمرؤ القيس ثانى ملوك الحيرة وجد المناذرة وقبره فى " النمارة " أو " انمارة " الواقعة فى"الحرة" شرق جبل الدروز ولم يكن هذا النقش بخط مشتق من المسند بل بقلم متأثر بالقلم النبطى ، " من تعليق للدكتور مراد كامل على" الفلسفة اللغوية لجورجى زيدان – ونقلا من جانبى عن " نحو ابجدية جديدة " للمستشار عثمان صبرى ص ٧٤ .

نقش النمارة

وبهذه الحروف النبطية أو حروف مشابهة كتب المصحف الأمــــام أو المصحف العثماني • ومنذ ذلك الحين أخذ الاصلاح يدخل على هذه الحروف تلو الاصلاح بدءً مما استنبطه اللغوى أبو الاسود الدوءلي عـن الحروف السريانية من علامات الاعراب اذ وضع نقطة فوق الحرف للدلالة على الفتحة ونقطة تحته للدلالة على الكسرة وأمامه للضمة ونقطتيـــــن للتنوين • وكانت تلك النقط تتم بحبر يخالف فى اللون حبر الكتابة• ولم يتأخر الاصلاح الثانى اكثر من عشرين عاما فحسب • اذ وضـــــع يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم مايسمى بالاعجام اى نقط الحـــــروف المشتركة فى الرسم بنفس لون الحبر الذى يكتب به الكاتب باعتبارهــــا جزءً من الحرف ذاته • وكان ذلك على عهد عبد الملك بن مــــروان وتحت ظل ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى على العراق ، ثم كـــــان الاصلاح الثالث الذى تم على يدى اللغوى الكبير الخليل بن احمـــــد الفراهيدى الذى وضع طريقة اخرى لعلامات الاعراب ، وذلك بــــــأن استبدل النقاط الملونة بعلامات صغيرة تكتب بنفس الحبر ، وكـــــان مجموع ما وضعه ثمانى علامات وهى الفتحة والكسرة والضمة والسكـــون والشدة والمدة والهمزة والوصل على شكل حروف صغيرة ثم تطورت حتى صارت الى الصورة التى نعرفها عليها اليوم • وهكذا حظيت الحـــــروف العربية النبطية الأصل بثلاثة اصلاحات كبرى فى غضون فترة لاتتجـاوز قرنا من الزمان قبل أن تصل الى مرحلتها الأخيرة التى بقيت عليهــــا حتى يومنا هذا اى قرابة اثنى عشر قرنا • •

لكن صورة الحروف العربية النبطية الأصل هذه وان غادرت عبر هذه الاصلاحات الثلاثة صفة اللبس والتعقيد ، الا انها لم تصل الـــى

الصفة الاخرى المنشودة ، صفة الوضوح والبساطة . وليس ادل علـــى ذلك من ان يكتب " ابن تغرى بردى " وعلى سبيل المثال بطبيعة الحال هذه العبارة في " النجوم الزاهرة " ص ١٨٦ .

" تولى شتير بن شكل القيسى الكوفى من اصحاب على بـــن ابى طالب وابن مسعود رضى الله عنهما (وشتير بضم الشين المعجمة وفتح التاء فوقها نقطتان وبعدها ياء تحتها نقطتان وشكل بفتح الشين المعجمة والكاف وآخره لام " .

ولانزال نقابل أصداء هذه العبارة الارشادية فى كتاباتنا بما فيها الصحفية السطحية حتى الوقت الحاضر. ويروى أن مصطفى النحـــاس رئيس وزراء مصر المنتخب سأل ضيفه ونظيره الايرانى . م.مصدق ذات يوم عما اذا كان اسمه بفتح الدال أم كسرها !

وفى هذا دليل قوى ، أليس كذلك؟ . على فشل الاصلاحات الثلاثة الكبرى المشار اليها ، فى الوصول الى صفة الوضوح والبساطـــة رغم ما أدته من خدمة كبيرة فى مقاومة اللبس والتعقيد الشديديـــن اللذين انطوت عليهما الحروف العربية ـ النبطية الأصل .

ومع إخناءة القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين فـــى مصر وعلى وجه أخص فى اعقاب ثورة مارس ١٩١٩ المجيدة دبـــت روح جديدة تولى وجهها ، مرة اخرى شطر الاصلاح والتغيير . واذا ماعرض المرء للأسماء التى دعت الى اصلاح الحروف العربية ـ النبطية الأصـل فانه يقابل بينهما حتى بعض من نذروا انفسهم فى اوقات لاحقة كسدنـة لكل ماهو قديم ، وبتحديد اكثر لكل ما ينتمى الى العصور الوسيطـة اكانت روح الثورة قد انحسرت ؟ وكانت موجات الثورة التالية قـــد تأخرت فى دعم الموجة الاولى؟ لا اقطع برأى فى الأمر. ولكن أهم مـــا اشارت اليه دعاوى الاصلاح فى هذا الصدد ، كما عبرت عنها شخصيـات كبيرة كاحمد لطفى السيد ، وطه حسين وعلى الجارم وجاد المولـــى

ومحمود تيمور وعلى عبد الواحد وافى وعثمان صبرى وعبد المجيد التاجى وغيرهم كثيرون ، ان الحروف العربية ـ النبطية الأصل تنطوى ، فى حد ذاتها ، على أسباب موضوعية محددة وراء اللبس والتعقيد وأهمها فى نظرى :

ـ تعدد ر الحرف الواحد وفقا لوقوعه داخل الكلمة ، مابين أولها الى وسطهاالى آخرها الى جانب طبيعة الحرف ذاته من قبوله للاتصال بما يليه او بما يسبقه من حروف مثال حرف " العين "الذى يصبح " ع " و " سع " و "ع" و "سع " ، دع عنك كتابة الهمزة التى تتوقف فى مدرسة على حركة الحرف السابق عليها ، وفى أخرى على حركتها هى ذاتها مثال : شئون ، شؤون ، الأمر الذى يجهد الكاتب والقارئ معا فيما لارطب ولاصيص وراءه وبورث من يتقنه سعادة ساذجة واعتدادا اجوف بمعرفة هى ادنى قيمة من الجهل الصريح .

ـ الافتقار الى صوائت مستقلة ، والمعروف ان الصوائت الثلاثة (الواو والياء والألف) هى سواكن فى نفس الوقت ، فضلا عن قصورها فى تمثيل صوائت اللغة المنطوقة .

ـ يرى المستشرق الفرنسى برينيه فى كتابه Chrestomathie ان طريقة الاختزال التى تقوم بها الكتابة العربية تسبب أضرارا جاما اذ انها طريقة تجعل القراءة مستحيلة على جمهرة الشعب وتقوم حجر عثرة فى سبيل مدنية الأمم لأنها تقاوم نشر الأفكار وتقدم الثقافة . "

وكتب عميد الأدب العربى "... أريد ان تكون الكتابة تصويرا دقيقا للنطق ، لا ان تصور بعضه وتلغى بعضه ، لا أن تصور نصف اللفظ وتلغى نصفه الآخر . أريد ان تكون للكتابة مانسميه الحروف (السواكن .) ومانسميه الحركات (الصوائت) تصويرا لاأهمال فيه من جهة وتصويرا قوامه اليسر والسهولة والسرعة والاقتصاد

فى الوقت والجهد والمال من جهة اخرى ." مستقبل الثقافة فى مصر
مثال اسم " طه " الذى ينبغى أن يكتب " طاها " .

وازاء هذه الأسباب واسباب أخرى اقترح اخرون استبدال الحروف العربية ـ النبطية الأصل بالحروف اللاتينية التى كانت قد حققت ظفرا طازجا فى تركيا على يد الزعيم الوطنى الكبير كمال أتاتورك بعد ان كانت التركيبة تكتب بالحروف العربية ـ النبطية الأصل .

وكان ماحدث أن دعاوى الاصلاح ودعاوى الاستبدال لم يؤخذ بأى منها ، وظلت الفجوة فاغرة شدقيها بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة بل وعدنا نكتب " موسيقا " و" رضا" و"دجا " كما اقترح المجددون ، على هذا النحو التقليدى السابق " موسيقى "و" رضى " و"دجى" الخ .

ولكن الدعوة التى دعا اليها فريق من المصلحين الذين امتازوا بالصدق مع النفس والاخلاص لبنى وطنهم والشجاعة فى الرأى باستخدام الحروف اللاتينية بدل الحروف العربية النبطية الأصل وعلى رأسهم عبد العزيز فهمى وسلامة موسى تستحق أن يسأل المرء ازاءها هذا السؤال :

لماذا لم ينتبه هذا الفريق الى الحروف القبطية ؟ وفى عبارة اخرى : لماذا حدد سلامة موسى ، ولم يكن منفردا فى ذلك فى واقع الأمر ، مطلبه ب " يجب ان نخرج من آسيا وان نلتحق بأوروبا" ؟
" اليوم والغد " .

ولكن الأمر يهدد عندئذ بان يقودنا خارج نطاق موضوعنا وفى سائر الأحوال لا ارانى اتهيب ، ولاينبغى أن يظن بى ذلك، الدعوة الى الكتابة بالحروف القبطية ، وبتحديد ادق اعتماد النسق الابجدى القبطى فى وضع ابجدية جديدة فمثل هذه الابجدية هى التى تستطيع

ان تصلنا بالعصر الذى نحياه، حيث ان الحروف اللاتينية مشتقة من الحروف اليونانية القديمة ، وهذه تشكل ٢٥ حرفا من الـ ٣٢ حرفا التى هى مجموع الحروف القبطية ، كما انها تصلنا فى نفس الوقت بتاريخنا القديم الذى لايزال حيا فى وجداننا • وفى عبارة منقحة عن عبارة الرائد الكبير " يجب ان نخرج من آسيا وان نستمر كما نحن عليه ، فى افريقيا بصفة أساسية " •

د- ـــ ابجدية جديدة للغة قومية حية :

اشارت الفقرة السابقة الى ما حاق بالاصلاحات الثلاث الكبرى التى ادخلها لغويون مجددون على الحروف العربية النبطية الأصل من فشل نسبى فى الوصول الى الضفة المنشودة من الوضوح والبساطة، وهو فشل حفز نفرا من المصلحين الصادقين الى تجديد الدعوة الى مزيد من الاصلاح كما حفز نفرا آخر الى الدعوة الى استبدالها جملة وتفصيلا بابجدية جديدة ، ومع ذلك يذهب ظنى الى ان كافة هذه الدعاوى ـــ ولا استثنى من ذلك دعواى هذه ـــ لن تصادف سوى فشل آخر طالما كان الهدف الذى تتوخاه هو كتابة اللغة العربية الوسيطة المشهورة بالفصحى ، فشل جديد آخر من نفس النوع الذى صادف ويصادف " الطريقة الكلية " التى تستند الى نظريات علم النفس الجشطلتى فى تدريس تلك اللغةفى المدارس الحكومية والخاصة وعلى حد سواء •

ترى ماهو السبب فى ذلك ؟

تقتضينى أمانة العلم ونزاهة الضمير أن اقرر بثبات ان السبب يكمن فى ان اللغة العربية الوسيطة " الفصحى " أجنبية ميتة ، اجنبية لم يتحدثها المصريون العاديون فى اى مرحلة من مراحل تاريخهم الوسيط او الحديث دع عنك القديم • وميتة تجاوزها التاريخ اللغوى وتركها بجوار اللاتينية والاغريقية والسريانية والانجلو ساكسونية وسائر اللغات الفصحى المقدسة التى سادت فى العصور الوسيطة والقديمة •

لكن الاشكال ليس مقصورا على الحروف العربية / النبطيـــة الاصل بحيث يمكن تجاوزه باللجوء الى حروف اخرى ــ ايا كانـــت، فالاشكال يمتد ليشمل طريقة الكتابة ذاتها • واذا كان لى أن أســال هذا الســؤال البسيط الذى اراه مشروعا الى جانب ذلك : لماذا نفصــل حرف الجر " من " ــ وهو مورفيم حر من الناحية اللغوية ــ عــن الكلمة التى تليه بينما نلحق حرف الجر " الباء " ــ وهو مورفيم حر ايضا ــ بما يليه رغم ما تنطوى عليه الخطوة الأولى من وضوح وبساطــة وما تنطوى عليه الخطوة الثانية من لبس وتعقيد يعوقان الفهم الصحيح والقراءة المتدفقة • مثال بير ــ ببر ــ ببر الشام ــ ببر عجوز • فــى هذا الســؤال يكمن جوهر اقتراحى الجديد ليس لكتابة اللغة المصريــة الحديثة فحسب ،بل ولطريقة كتابتها كذلك ، أى ان اقتراحى ينقســم الى شقين الأول : الكتابة فى حد ذاتها ، وبصدده ارى ان يمضــى المصريون المعاصرون الى اعتماد الحروف القبطية وخصوصا حروفها السبعة الديموطيقية كأساس لأبجدية جديدة يكتبون بها لغتهم المصرية الحديثــة اى لغتهم القومية الحية ، الثانى : طريقة الكتابة التى سأمضى حــالا لوضعها موضع التشريح •

هـ ــ حول طريقة كتابة اللغة المصرية الحديثة :

اعتذر بادىء ذى بدء ــ إن كان ثمة مايوجب الاعتذار ــ عن قصر استشهاداتى فى هذا الصدد على كتابات ثلاثة مبدعين فحسب هــم عبدالله النديم فى النصف الأخير من القرن الماضى وبيرم التونسى فــى النصف الأول من القرن العشرين واحمد فؤاد نجم معاصرنا ، فهــؤلاء الثلاثة توغلوا اعمق الأشواط ، قدر معرفتى ووسع ادراكى بطبيعة الحال ، فى الاتصات للشعب المصرى ، اى فى الانصهار فى وجدانه وتشــرب روحه والتفكير بلغته المصرية الحديثة دون ان ينطوى الأمر من جانبى على اى حكم سلبا او ايجابا على المواهب التى حبتهم الطبيعة بهــا او حبت بها غيرهم ، بل وأمضى الى الاقرار بان استشهاداتى هـــذه

سوف تعتمد ، مرة اخرى ، وكيفما اتفق بطبيعة الحال ، على
ديوان " صندوق الدنيا " لنجم و " السيد ومراته في باريس " بيرم
وكتابات " النديم " في مجلته الذائعة الصيت " الأستاذ ".

كتب " نجم " ص ٦١ :
(حتقفل مخك)
ولست ادرى لماذا وصل " الحاء " بالكلمة التي تليها ،وألم
يكن من الأوضح والأبسط ان يكتب عبارته على هذا النحو:

(ح تقفل مخك)
خاصة وانه فصل هذه " الحاء " في السطر التالي مباشرة
على هذا النحو :.
(ح نطخك)
واذا مددنا هذه الطريقة ، اى كتابة الكلمة مورفيميا ، على
استقامتها ،اما يتعين علينا ان نكتب العبارتين او السطرين نشدانا
لصفة الوضوح والبساطة على هذا النحو :

(ح تقفل مخ ك) .
(ح نطخ ك)

وكتب نجم ص ٥١ :
(ماشفتش)
وحسنا فعل اذ فصل الـ " ما" هنا بعد ان كان قد وصلها
في ص ١٩ على هذا النحو :
(سحر مفيش)
ولكن ماذا لو كان قد كتب العبارتين على هذا النحو :
(ماشفت ش)
(سحر مافي ش)

وعلى اى حال ، لايزيد اقتراحي في هذه النقطة عن "تقعيد"

ماكتبه هو نفسه ، وبعبارة ادق ما اضطر ان يكتبه ص ٤٨ اذ كتب :
(ولا تقلقوش)

فلقد حال بينه وبين وصل ال "ش " بما قبلها امر يرى فيه لغويون كثيرون — وهم على حق فى ذلك — احد مظاهر الصعوبة غير المجدية غير المثمرة للحروف العربية/ النبطية الأصل ، وهو امتناع بعض الحروف، بطبيعة رسمها عن الاتصال بما يأتى بعدها والحرف المقصود فى هذا الشأن هو " الواو " فى تقلقو لكن هذه الصعوبة انقلبت — دون ان يخطط لذلك احد — الى دافع غير واع على الابانة والتوضيح • ولست افعل فى هذا الصدد سوى تحويل هذا الدافع غير الواعى الى هدف واع منشود • وعلى اى حال ثمة حروف " ذهبية" اخرى تفعل نفس ما تفعله " الواو " المذكورة مثل الف الفصل التى لاتتصل بطبيعتها ، بما بعدها وساعدت " نجم " على ان يكتب فى ص ٧٦ :

(مالهاش)

وكتب " بيرم " ص ٢ :
— انتى كده عريانة تبقى مستورة •

وحسنا فعل اذ اثبت " الياء " فى " انتى " مستعيضا بها عن الكسرة التى تستخدمها الكتابة العربية الوسيطة • ونادرا ما تظهر فى الكتابة العربية الحديثة ، لكنه كتب " كده " • وليس " كدا " وقد يرى البعض ان المصريين المحدثين ينطقونها " هاء " مثلما كتبها " بيرم " • وليست " الفا " مقصورة او ممدودة • ولكنه ينبغى ، طالما كنا ننشد الوضوح والبساطة ، وهذان هدفان نبيلان فى هذا المجال رغم كل شئ آخر ، ان ندفع ضريبة عليهما ،وهذه تتمثل فى بعض الدقة التى لاتتحقق بشكل كامل الا داخل المعامل الصوتية واستخداما لأبجدية صوتيه خاصة • ويصير لزاما علينا ، من ثم، ان نكتب " كده " بطريقة اقل دقة أى " كدا " حتى نشير الى

انجدازها من " كذا " و" هكذا " وعندئذ يتحدد فى الذهن معناها على نحو أسرع ويغدو الفهم اقرب منالا . وقد لاتستبين ضرورة ذلـك فى هذا المثال بحد ذاته على نحو ماتستبين عليه فى امثلة اخـرى . وعلى اى حال كتب " بيرم " فى ص ٩ هذه العبارة :

/ ودا يبقى ايه /

وكتب فى نفس الصفحة :

ـ/ عالبيت /

ويبدو ان " بيرم " اراد بذكائه غير المنكور ان يخـط مختصر حرف الجر " على " كما يرد فى اللغة المصرية الحديثـة، لكنه كان اقل اهتماما بأن يفصله عما يليه على هذا النحو :

ـ / ع البيت /

الا ان " بيرم " الذى توخى هنا كتابة صوتية اى كما ننطق وان لم تسعفه الحروف العربية / النبطية الأصل ـ كتب فى نفس الصفحة :

ـ /وحانروح على فين دلوقت /

وحسنا كتب اذ فصل الـ " حا " عما يليها، الا ان حـرف الجر " على " جاء تقليديا حاملا الالتباس التقليدى مع اسم العلـم " على " وصار اتساقا مع كتابة " بيرم " نفسه ان يكتب العبـارة على هذا النحو :

ـ / علافيـن /

وعادت / دلوقت / تنشد كتابة صوتية ولست ادرى ما اذا كان مما يبعدنا عن اللبس والتعقيد ان نكتب هذه الكلمة على هذا النحو :

ـ/ دا الوقت /

وكتب " بيرم " فى ص ٧١ :

ـ / ياخدوا عشرين فرنك "

والف الجماعقفى / ياخدوا / ليس سوى جزء من تركة ثقيلة رغم الأسباب التى يسوقها اصحابها ـ من كتابة اللغة العربية الوسيطة بصورة غير منطقية ـ مرت عبر يد " بيرم " الى اللغة المضرية الحديثة التى اودعها معظم ابداعه دون ان تفوز منه بطبيعة الحال بهذا الوصف العلمى ولو شاء " بيرم" مزيدا من الاتساق لحذفها مع أسبابها .

أما " النديم " فكتب ص ٤٦ :

ـ / الخمور متناسبشى بلادنا /

وارى من جانبى ان الوضوح والبساطة تقتضيان ان نكتب العبارة على هذا النحو :

ـ / الخمور ما تناسب ش بلادنا /

وكتب ص ٢٤٨ :

ـ / يا أختى ايش جاب لجاب /

واتصور ان الاوفق ان نكتب العبارة على هذا النحو :

/ يا اختى اى ش جاب ل جاب /

وكتب ص ٣٥٨ :

ـ/ مافيهشى /

واولى ان نكتب العبارة هكذا :

ـ/ مافيه ش /

لكن " النديم " كتب :

ـ/ على شان /

وحسنا كتب اذ فصل / على / عن / شان / . لكن يده نقلت عجمة الكتابة العربية الوسيطة الى اللغة المصرية الحديثة فى على / على نحو ما سبقت الاشارة اليه .

الا ان " النديم " ذاته كتب :

ـ / خلاقلبى ياكلنى /

وحال بذلك دون انتقال تلك العجمة التى كانت لتحدث لوكتبها / خلى / بالياء قياسا على / ياء / الفعل المضارع / يخلى / على نحو ما يفقهنا به فقهاء العربية الوسيطة ولكن " النديم "عاد يكتب:

ـ/ عايزين يخلوا البلد اردخانة /

مثبتا ألف الجماعتقى / يخلوا / كما تقضى تقاليد الكتابة فى هذا المجال وان حذف الألف من كلمة " المرأة "وكتبها" المـرة" مغامرا بالتباسها مع " المرة " بتشديد الراء •

ومجمل القول ان النقد الذى سقته لكتابة اللغة المصريتة الحديثة عند ثلاثة من كبار مبدعيها تستند الى قاعدة راسخة، وان كنت ارجو الا تصير مقدسة لا فى يوم قريب أو بعيد ، وهى :

" ينبغى ان نكتب لغتنا المصرية الحديثة مورفيميا قدر الامكان وصوتيا قدر المستطاع سواء استمررنا فى كتابتها بالحروف العربية النبطية الأصل أو اهتدينا الى حروف جديدة تملنا بالعصر الحديث من ناحية وبجذورنا القديمة أقصد جذورنا الاعمق كمصريين حاميين افريقيين من ناحية اخرى •

غربها على سبيل المثال لا الحصر ولاستخدام التقويم المصرى (القبطى) عوضا عن التقويمين الاجنبيين الهجـــــرى والجريجورى اى العربى ـ السامى والاوروبى ـ الآرى ،ولاختراع ابجدية جديدة تكتب بها اللغة المصرية الحديثة .

ونستهدف ان :

× نسهم فى تحرير كافة القوميات والجماعات القومية فى منطقتنا كالمصريين والبربر والاكراد بل واليمنيين والحجازيين انفسهم من وطأة " العروبة " تماما مثلما نأمل فى تحرر الاسرائيليين من " الصهيونية " ، اى نقل الجميع الىمرحلة والاولى مراحل أرقى . وهذه مقدمة لاغنى عنها لتقدم المنطقة تحت رايـــــات الحق والخير والجمال ، فالارقى اكثر غيرية اى اكثر انسانيـــة والمتخلف اشد ظلما وقهرا واستبدادا وبعبارة اخرى أبعد عن الانسانية ، ونسترشد فى ذلك بتجارب كافة الشعوب التى نفضت عن كاهلها الثقافات الاجنبية الخانقة لثقافتها القومية كالفنلنديين ازاء الثقافة السويدية ، وتلك التى ازاحت عن عقلها وعن روحها الثقافة الأجنبية المتخلفة كالاسبان ازاء الثقافـــــة العربية ، وتلك التى تمسكت بثقافتها القومية كالهنود ازاء المغول ، وتلك التى تطور ثقافتها الموروثة كمعظم شعوب الارض .

من كل ما أسلفنا نخلص الى مايلى :

أن الامر فى مصر ليس أمر أمية وتعليم ولا أمر جهل وعلم كما تذهب اغانى المتعلمين المصريين وخصوصا كبارهم الذين لايملون ولايكلون ليل مساء في المطالبة بمحو هذه الأمية لصالح ذلك التعليم ، وهو مايهبط ـ فيما لو تم ـ الى حد اقتلاع الثقافة المصرية المحلية، وانما الأمر أمر ثقافة قومية زراعية راقية مضطهدة " بفتح الهاء" تعانى من ضغط ثقافة اجنبية رعوية متخلفة مضطهدة" بكسر الهاء"، الثقافة الأولى تتبدى في لغة تحليلية اى ارقى من الوجهة التاريخية واللغوية الوصفية البحتة والثانية تتكشف خلال لغة تركيبية اى ادنى من نفس الوجهة وبنفس المعيار . الثقافة الأولى تتأسس فى الاتصال بينما تحيا الثقافة الثانية بالانفصال .

وبذلك نكون قد قفزنا قفزة واسعة، ولكن نحو عقل شعبنا المصرى ووجدانه فى آن واحد ، اليس كذلك ؟ ولننصت قبيل الختام الى هذا الموال المصرى الجنوبى مجهول المؤلف :

يا قايد النار علّى
وارمى الحطب يا يهودى
خلى الصبايا تدلى
وبيان ضى العقودى
وان ظغر طولى لأغنى
وافرح قليب الحزينة
انا عارف اللى دغن نى
بدوى وراكب هجينه

وليسمح قارئنا الكريم ان نصوغ فى خاتمة الخواتيم دعوتنا فى بيان نظنه بيانا حضاريا / ثقافيا على هذا النحو :

نلاحظ أن :

المصريين استمروا يعتمدون على الزراعة لعدة آلاف من السنين وبالتالى فهم مستقرون أى متحضرون ، والعرب ظلوا يعتمدون

على الرعى منذ ظهورهم على مسرح الشرق الأدنى القديم، وعليه فهم رحل ، أى أقل حضارة •

× المصريين شمسيون ، أى انتهوا الى تقديس الشمس وابتدعوا التقويم الشمسى الذى تبننه عنهم الشعوب المجاورة فى غرب أسيا وجنوب أوروبا ، أما العرب فقمريون ظلوا عند تقديس القمر وثبتوا على تقويمهم القمرى وديانتهم القمرية •

× المصريين يشكلون فيما بينهم مجتمعا قوميا ، هو أقدم مجتمع قومى فى العالم ، استمر يحيا فى بقعة جغرافية واحدة، فيما ظل العرب خاضعين للتنظيم القبلى حتى بعد قيام دولتهم الكبرى فى " يثرب " •

× و " المصرية " بناء على ذلك ، وبصفة رئيسية مرحلة حضارية / ثقافية أرقى من " العروبة " التى تحمل طابع الساميين القدماء فى مرحلتهم القبلية قبل ـ القومية ، تماما مثلما تصطبغ الصهيونية بخصائصهم فى مرحلتهم القبلية ـ بعد القومية •

ونرى أن :

× مصر أخذت تصبح منذ أواسط الألف الأول لميلاد المسيح جسما بلا رأس ، والاحرى جسما يحمل رأسا اجنبية متخلفة هى الرأس العربية ـ السامية •

والثقافة السائدة فى مصر تعاند مجرى التاريخ الانسانى ، عندما تسعى الى قسره على العودة الى الوراء ، اى ان يصبح المتحضرون اقل حضارة ، وبعبارة اخرى تنتصر الثقافة السائدة فى مصر فى الوقت الحاضر ومثلما فعلت فى الماضى لسنن البداوة على اعراف الحضارة •

ونقدر أن :

× تاريخ مصر المدون الذى يبدأ على الأقرب منذ عام ٣١٠٠ ق ٠م (لوح نارمر) يقوم على الاستمرار لا الانقطاع والاتصال دون الانفصال ٠

× المصريين لن يقيموا مصريتهم الا ازاء " العروبة" كما حددناها آنفا " تلك التي تحاول جاهدة منذ اكثر من ثلاثة عشر قرنا ان تسلب وتنهب وتدمر وتزور " المصرية " بصفة هذه " المصرية" عقلا متعددا ووجدانا خصبا وروحا عاشقة للحياة وضميرا حيا يسعده ان يعطى وان يبهج وان يضمد وان يواسى ٠ ولإقامة المصريين لمصريتهم ضرورة مزدوجة :ان يزدهروا وان تزدهر الشعوب المتاخمة لهم ، عوضا عن ان يتخلفوا مع المتخلفين ويسير الجميع فى طريق الاندثار ٠

× الأوروبيين المحدثين ارتكزوا فى مغادرتهم لظلمات العصر الوسيط وفى استشراف المستقبل الوضاء على ماضيهم اى على الحضارة الاغريقية ــ الرومانية التى حملتها بصفة رئيسية اللغتان اليونانية واللاتينية ونرى فى ضوء ذلك ان نرتكز نحن ايضا ،اذا كان لنا ان نغادر ذلك العصر الوسيط الذى لانزال غارقين فى قاعه السحيق على ماضينا ، اى على الحضارة المصرية ــ السودانية التى تحملها بصفة اساسية اللغة الهيروغليفية ومرحلتا تطورها اللاحق الديموطيقية والقبطية بالاضافة للغة المروية ٠ ومعنى القول ان ندرس هذه اللغات فى مراحل تعليمنا الابتدائية والاعدادية والثانوية والجامعة بما في ذلك مايسمى بالمعاهد الأزهرية وتلك الاكليركية على حد سواء ، على ان يتم تدريس هذه اللغات القديمة باللغة المصرية الحديثة الى جانب كافة العلوم والآداب والفنون بطبيعة الحال ، مع افساح صدورنا للتعددية اللغوية التى تثرى ثقافتنا ، اعنى اللغة النوبية فى جنوب مصر واللغة السيوية فى شمالى

رقم الايداع بدار الكتب القومية
١٩٩٠ / ٩٦٨٨

I.S.B.N.
977-00-1017-0

من كل ما أسلفنا نخلص الى مايلى :

أن الامر فى مصر ليس أمر أمية وتعليم ولا أمر جهل وعلم كما تذهب اغانى المتعلمين المصريين وخصوصا كبارهم الذين لايملون ولايكلون ليل مساء فى المطالبة بمحو هذه الأمية لصالح ذلك التعليم ، وهو مايهبط — فيما لو تم — الى حد اقتلاع الثقافة المصرية المحلية، وانما الأمر أمر ثقافة قومية زراعية راقية مضطهدة " بفتح الهاء" تعانى من ضغط ثقافة اجنبية رعوية متخلفة مضطهدة" بكسر الهاء" ، الثقافة الأولى تتبدى فى لغة تحليلية اى ارقى من الوجهة ' التاريخية واللغوية الوصفية البحتة والثانية تتكشف خلال لغة تركيبية اى ادنى من نفس الوجهة وبنفس المعيار . الثقافة الأولى تتأسس فى الاتصال بينما تحيا الثقافة الثانية بالانفصال .